د / محمد عبد المنعم خفاجي

حوار الحضارات
بين الشرق والغرب

رابطة الأدب الحديث

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م
دار الاتحاد التعاوني للطباعة
ت ٢٩٩٩٥٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

التحريم الآية ٨ .



تصدير

- ١ -

حوار الحضارات ، وما بينها من تأثر وتأثير ، ومن أخذ ، وعطاء ، هو طبيعة الحضارات القديمة والحديثة ، فى الشرق والغرب، وهو ديدنها المستمر ، دون وناة أو إحجام .

وحواز الحضارات يجادل الذين يذهبون إلى صراعها ، وينادون بأن ما بينها وبين بعضها والبعض الآخر لا يتم بحوار ، وإنما ينتهى إلى الصراع الذى يفضى إلى تغلب حضارة على حضارة ، وهزيمة واحدة، أو قل استسلامها ، أمام أخرى .

ويقولون : إن حضارة الغرب صارعت الحضارة الإسلامية وغلبتها ، وأخذت الزمام من يديها ، وإن الحضارة الإسلامية تحاول مرة أخرى أن تدخل معها حلبة الصراع ، وأن تسترد الراية من يديها. بالعنف والإرهاب ، ومحاولة النصر والغلبة على حضارة الغرب . وهو منطق غريب ، ومخالف لطبيعة الإسلام ، وشريعة السلام ، التى سار عليها المسلمون طول عصور تاريخهم المجيد . .

كتابنا اليوم يعرض القضية من جانبها التاريخى والعلمى ، ويوضح بأجلى بيان أن الإسلام لا يعرف التعصب ، ولا ينادى بغير السلام ، وأنه على النقيض من مزاعم الصراع وإفكه القبيح .

فصول هذا الكتاب كلها تنادى بأن شريعة الإسلام وحضارته وعقيدته هى صنو المحبة والتآلف والتعاون والتعارف والحق والعدل والإنسانية ، وأنه لا يدخل مع أحد حلبة صراع ، ولا يقيم حربا

ويقعدها من أجل طلب الغلبة والنصر ، وأنه هو هُوَ شريعة الله العلى الأعلى ، التى تنبذ الحرب ، وتحرم الصراع ، وتنادى بأخوة البشر فى ظلال الإنسانية العادلة المستنيرة ، التى ترفع شعار الأخوة والتلاقى أمام البشر جميعا وتؤكد طبيعته الرحيمة ، ﴿ فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ (الأنعام ٥٤)

- ٢ -

إن حوار الحضارات قضية بدهية وأساسية فى حياة العالم وحياة الشعوب . وحين نتحدث عن حوار الحضارات نؤكد أن كل حضارة أخذت من سابقتها بحكم التأثر والتأثير ما أخذت ، وكان هذا التأثر هو السبب فى استقلالها وتميزها ، بل وفى قيامها .

والذين ينادون بصراع الحضارات يهدفون من وراء هذه الدعوة أغراضا سياسية أو اقتصادية أو دينية أخرى ، ولا يقصدون وجه الحقيقة ووجه الله .

- ٣ -

وهذا الكتاب يتحدث عن نزعات معاصرة فى الغرب تدعو إلى الصراع بين المسلمين وأبناء الغرب على الدوام ودون انقطاع ، ولا تحمل غصن الزيتون والسلام لأبناء البشرية كافة .

الغرب يقبل كل مذهب ودين إلا الإسلام ، ويقبل كل طائفة وجنس إلا المسلمين . . وهذا منطق عجيب من الفكر السائد فى الغرب اليوم .

يقولون : الإسلام هو الخطر الأكبر على الحضارة الغربية . . ويقول بعضهم لبعض : المسلمون قادمون ، ويقولون : المسلمون

يمثلون الإرهاب بكل سوءاته وعنفه وعدوانه .

وهذا خطأ لا يحتمل الصواب ، الإسلام يدعو إلي التعارف والوئام والحب لأبناء البشرية كافة .

والمسلمون بنداء دينهم ينادون بالتعاون بين كل الأجناس والطبقات والأديان .

وفكر صراع الطبقات فكر مذموم وقبيح كل القبح .

ـ ٤ ـ

إن هذا الكتاب يفتح أمام قارئه باب الحوار بين الحضارات والمذاهب والأديان والأجناس ويوصد باب الصراع إلى غير رجعة، فلنمضِ مع صفحاته لنرى مستقبل البشرية وغد الحضارة ، ومصائر الشعوب .

لنمضِ فى طريق الحب والإخاء والوئام واللقاء بين بنى البشر دون نهاية .

وإنى لأؤكد فى قوة وحزم أن الحضارات القديمة والحديثة يسودها دائما حب الحوار والوئام والصفاء .

وسترى فى صفحات هذا الكتاب ما يدلك على أننا لسنا مغالين حين نذهب إلى أن الحضارات إنما تقوم وتنمو بما تتخذه من وسائل لتنمية روح الحوار بينها وبين الحضارات التى سبقتها والحضارات التى عاصرتها .

الفصل الأول

ما هى الحضارة ؟



ما هى الحضـــارة ؟

ـ ١ ـ

المدنية هى التقدم المادى للأمة والثقافة هى حصيلة الإنسان الفكرية والأدبية والعلمية ، أو هى التراث الروحى والتاريخى والفكرى للأمة(١) .

والحضارة هى حصيلة الإنسان الشاملة للمدنية والثقافية(٢) ، وهى تشمل الجوانب الروحية والفكرية للأمة معا(٣) .

ولتعريف الحضارة نعود إلى قاموس اكسفورد :

«تحضر(To civilize) تعنى الخروج من الحالة البربرية . والعمل على بناء دولة كاملة التنظيم . أما حضارة (civilization) فتعنى مرحلة متقدمة من التطور الاجتماعى .

✽ أما فرويد فله تعريف مشهور :

الحضارة هى جملة الانجازات والقواعد التى تميز حياتنا عن حياة أسلافنا . والتى تنشد تحقيق هدفين : حماية الإنسان من الطبيعة . وتأسيس علاقات متبادلة بين الإنسان وأخيه الإنسان .

✽ وثمة تعريف حديث لكلمة حضارة أعتقد أنه أكثر عمقا وأكثر اكتمالا . ربما بسبب بعده الفلسفى . والتعريف وارد فى المعجم الفلسفى للدكتور مراد وهبة :

---

(١) يقول عنها فتحى رضوان : إنها المعرفة الوجدانية عن طريق العقل . أما المعرفة العقلية فهى العلم { ٦ مجلة الثقافة عدد نوفمبر ١٩٧٣ }

(٢) ٣٧٢ ـ ٣٨٢ المؤتمر الثانى لمجمع البحوث الإسلامية من مقال للدكتور سليمان حزين .

(٣) الدكتور محمد خلف الله ـ ص ٣٨٤ المرجع السابق .

«الحضارة هى الحالة المقابلة للفطرة . وتطلق على جملة من مظاهر التقدم الأدبى والفنى والعلمى والتقنى تنتقل من جيل إلى جيل فى مجتمع واحد أو عدة مجتمعات متشابهة . فنقول الحضارة الصينية. الحضارة الأوروبية . الحضارة العربية» .

وهكذا فإن الحضارة هى محتوى تاريخى . جغرافى . فكرى . علمى . أدبى . ثقافى . وهى محتوى ذو طبيعة تراكمية جيلا وراء جيل، تتراكم مكونات هذا المحتوى فكراً وعلما وثقافة وتقاليد وعادات وعبادات وكل ما انعكس عن ذلك من أساليب فى التعامل والحوار ومن مستوى فكرى وفنى وابداعى وأزياء ومعاملات. . إلخ فى تراكمية فلسفية بمعنى إنك تصهر الجديد مع القديم. السلبى والإيجابى. العلمى والمعرفى ، وما له علاقة بالعادات والتقاليد. المنقول والمبتكر محليا ، تصهر كل ذلك فى وعاء واحد أقصد فى سبيكة واحدة .

ـ ٢ ـ

والحضارات القديمة قبل الإسلام كثيرة : السومرية ، البابلية ، المصرية ، الفارسية ، الهندية ، الصينية ، الإغريقية ، اللاتينية ، البيزنطية ، الهيلينية .

وأهمها : الهندية والصينية والمصرية والسومرية .

وقد حاول مفكرون عديدون الربط بين التاريخ الأوربى للحضارة والغير الأوربى ، ومن هؤلاء هـ . ج ويلز ، وقد نشر عام ١٩٢٠ كتابا عن الحضارة استمد معظم معلوماته فيه من دائرة المعارف البريطانية .

وكان التاريخ الذى قدمه هو تاريخ التقدم.

وجاء المفكر الألمانى سبنجلر فكانت كتاباته عن الحضارة أكثر خصوصية من كتابات ويلز ، ورؤيته للمدنيات والحضارات الغير الأوربية هى التى قدمت للمؤرخ الإنجليزى توينبى المفتاح الأساسى فى بناء دراسته للتاريخ . وقد عامل سبنجلر الحضارة العربية وبعض الحضارات اللاأوربية على أنها حضارات متساوية .

وتوينبى أغزر وأكثر استيعابا ويذهب إلى أن الحضارات اللاأوربية لها تاريخ مستقل عن التاريخ الحضارى الأوربى . وهو يذهب إلى وحدة البشرية وإلى قيمة كل الحضارات العالمية ، ويرفض فكرة القرب فى التركيز على ذاته وفى تميزه على غيره من الأجناس - «الأهرام ٥/٧/٢٠٠١- السيد شلب» -.

- ٣ -

وعن تعريف الحضارة يقول المفكر العربى عبد الله زكريا الأنصارى فى كتابه «كتاب الحياة» ص ١٢١ وما بعدها : «إن الحضارة أمر شامل يرتبط بالأدب والعلم والفن ، وغير ذلك من العلوم والفنون الأخرى ، بل فوق كل ذلك ، الحضارة ترتبط بالخُلُق ، بل إن جوهر الحضارة - كما نفهمه - إنما هو الخلق قبل كل شىء ، والذين يريدون بناء حضاراتهم على أنقاض الشعوب إنما هم أعداء الحضارات ، كما نعتقد ، والحضارات التى قامت على أنقاض الشعوب سرعان ما تهدمت وانهارت ، لأنها لا تعتمد على أساس متين قوى ، والأخلاق بدونها تهدم الحضارات وتتقوض .١٢أساس قوى متين ، و

وهناك من يدعى الحضارة وهو قابع فى حضيض التأخر ، سواء على المستوى الخلقى أم على المستوى الفكرى ، أم على المستوى المتدنى من أفكار الناس وخلوها من الوعى القومى والحس الوطنى ،

وانسياقها وراء الدعايات الفارغة ، أو وراء تشويه الحقائق وتزييف الوقائع .

وهناك من تهفو نفسه إلى بناء حضارة ، لكنه لا ينظر إلى ما يجرى حوله من أمور ، إما لقصر نظره ، أو لانخداعه ببهارج لا تمت إليه بصلة ، وهذا شأنه شأن الذين يقفزون فوق حيطان لا يدرون ما وراءها من ركام .

وهناك من تهفو نفسه لإعادة بناء حضارة مندثرة ، وهو لا يملك شيئاً من مقومات الحضارة ، وهذا لا يختلف عن الذين يعيشون فى خضم الأوهام التى لا يجنون من ورائها غير قبض الريح .

الحضارة التى نؤمن بها هى التى تبنيها الشعوب بوعيها وبقوتها العقلية ومتانة خُلُقها ، وحسن تصرفها .

الحضارة هى مجموعة من العناصر والمقومات تتوفر لدى الشعوب، وترتفع بها فى الحياة .

الحضارة هى التى تعمل على رفع مستوى الناس ، وإرشادهم إلى سبل الحياة السليمة .

إن الذين يحاولون الاستهانة بعقول الناس ، وتحريف الحقائق أمامهم ، وتضليل الشعوب ، إما منحرفون أو مجندون لخدمة قضايا فئة دون فئة ، ولا يمكن لمثل هؤلاء أن ينتسبوا لأى حضارة من الحضارات ، إلا حضارة التأخر والكذب والخداع ، إن صح أن يكون للخداع والكذب والتأخر حضارة .

عندما قام الإسلام ، راح يزدرى المظاهر ، ويركّز على بناء الإنسان لخدمة البشرية ، ولم يهتم بالمبانى العالية ، ولا القصور

الفخمة ، ولا المقابر المنصوبة ولا النقوش المحفورة ، بل كان اهتمامه منصباً على روح الإنسان وضميره ، وعلى عقله وقلبه ، ينزع ما فى القلوب من غلٍ ضد بنى البشر ، وينقّى العقول من الخرافات التى تستهين بالعقول ، ويطهّر ضمائر الناس وأرواحهم ليدفعهم فى طول البلاد وعرضها لاعتناق هذه الحضارة ، حضارة الإسلام لا تؤمن بالغش والخداع ، ولا تؤمن بالكذب والتضليل ، ولا تدين إلا لله وحده خالق الحياة للناس كافة .

فأين حضارة الإسلام من حضارة القبور والقصور والمعابد؟ إنه «الإسلام» حضارة العقل والفكر والقلب والضمير ، لا يهتم بغيرها ، ولا يدين لمعبود سوى الله ، ولا يفضل إنساناً على إسان إلا بقدر ما يقدمه للبشرية من نفع فى دنياها وفى أخراها .

فهل قام من يَجْلُو الحقيقة ويقرب مفهوم الحضارة للناس الذين ينخدعون هذه الأيام بالمعانى التى تُطْلَقُ على مفهوم الحضارة؟ هناك الكثير من الناس الذين لا تستطيع عقولهم أن تتقبل المفاهيم التى يُطلقها نفر هنا ، ونفر هناك ، فى معنى الحضارة ، إنهم يفزعون عندما يرون المكائد التى تُكاد ، والمؤامرات تُدبر من قوم يدَّعُونَ التحضرٍ ، ويطلقون على أنفسهم أصحاب حضارة ، ويفزعون من الدول المتقدمة علمياً ، وهى تحيك المؤامرات وتدس الدسائس ضد كثير من الشعوب، بل يفزعون عندما يرونها تحرض وتعمل على قتل الشعوب وإبادتها ، وهدم المدن وتخريب الحياة لصالح سيدٍ تدين له بالعبودية ، ثم ترفع عقيرتها وتدَّعى التحضر والحضارة .

إن الناس يفزعون اليوم من تسخير العقول وتوجيهها لتضليل الناس وخداعهم ، وبث البلبلة الفكرية باسم الحضارة والتحضر ،

وهم يفزعون عندما يرون التقتيل والتشريد ، ثم التخطيط والمؤامرات قائمة على قدم وساق لإبادة المشردين والقضاء عليهم ، إنهم يضنّون بالحياة على الذين شردوهم من ديارهم وأوطانهم ، إنهم يريدون إفناءهم حتى لا يضايقوا السيد الذى ربَّوهُ على الاعتداء والبطش ، ولما اشتد عودُه وقوى أخضعهم عبيداً له ، يأمرهم فيأتمرون بأمره ، ويخطط لهم فينفذون ، ومع ذلك يدْعون أنهم أصحاب حضارة وتحضر ، وهم مفلسون من كل مقومات الحضارة المعنوية وجوهرها وروحها .

ولهذا راح الناس يتساءلون ، وحق لهم أن يتساءلوا عن الحضارة وماهيتها ومفهومها ومعناها ، ولا يرون فى مفهوم الحضارة غير التشويش ، وغير الخداع والتضليل .

إن الحضارة هى التى تُبنَى وتُشاد داخل العقول والأفكار وفى الضمائر والقلوب ، والحضارة بناء معنوى قبل أن تكون بناء مادياً ، ذلك أن مفهوم الحضارة يدل على الرقى والتقدم ، ولا يمكن للإنسان أن يتقدم ويرقَى بعيداً عن نقاء الضمير وصفاء القلب ، وسلامة العقل والتفكير .

إن البناء المعنوى هو أس الحضارة وعمادها ، والبناء المادى إن لم يعتمد على أس البناء المعنوى الرفيع المتين ، سرعان ما يتهدم وينهار ، أم أن هناك رأياً آخر غير هذا الرأى؟ ولو فرضنا جدلاً أن حضارة مادية قامت واتسعت ، وبنت وشيدت كل أنواع المؤسسات المادية ، لكنها خلت من مقومات البناء المعنوى ، وفقدت نقاء الضمير ، وصفاء القلب ، وسلامة التفكير التى تسمو بالإنسان من الشوائب ضد الإنسان ، فهل يمكن لمثل هذه الحضارة أن تخدم الإنسان وتسوى بين

الناس كافة؟ أم أنها ستكون حضارة خاصة بإنسان دون إنسان آخر؟ تخدم فئة ضد فئة أخرى؟ ترتفع بمستوى قوم ضد أقوام آخرين؟!

لابد للحضارة من أن تسمو بالإنسان ، وترتفع بخلقه وبروحه ، وتحلق بفكره ، وتطير بقلبه ، وتزهى بضميره . وإذا لم تكن كذلك فهى حضارة البطش والإرهاب ، حضارة الهدم والتدمير ، حضارة العبيد والأسياد ، حضارة التمييز والعنصرية ، وحضارة هذا شأنها لابد من أن تتسلط على الضعفاء من بنى البشر لصالح الأقوياء ، ومفهوم الحضارة الارتفاع ببنى البشر والمساواة بين الناس وتطبيق العدالة فى مختلف أمور الحياة .

الحضارة ليست تلك التى تهبط بمستوى الإنسان الخُلُقى ، حتى ولو بنت له الدور والقصور والمصانع والطائرات ، ومختلف وسائل العلم ، بل الحضارة هى تلك التى تحفظ للإنسان كرامته ، وترتفع بقيمته العقلية والروحية» .

الحضارة تراث الشعوب

- ١ -

الحضارات الإنسانية دائما هى ثمرة الرسالات السماوية المقدسة ، لأنها حضارة يبنيها العقل الإنسانى الموجه بتعاليم السماء ، فهى حضارة الروح لا المادة ، حضارة العقل والفكر والضمير الحى والإبداع المتصل ، وحضارة الإنسان الملتزم بالقيم النبيلة وبالإنسانية .

وكلما أخذت الحضارة من النبعين نبع الروح ونبع العقل ازدهرت وازدادت ازدهارا ورسوخا ونماء .

الحضارة هى جزء من تراث الأمم والشعوب وهى زاد من مدخرات الدول ورصيدها القومى ، وهى الشعلة الوهاجة التى تضىء للأمم طريقها نحو الازدهار والرخاء والسلام ، فهى إذن فى العمل على السير بها نحو المستقبل الذى نبحث عنه ، والغاية التى ننشدها . ومن الواجب أن تزدهر الحضارة يوما بعد يوم وأن يكون حاضرها خيرا من ماضيها ، وأن يكون مستقبلها أفضل من حاضرها . .

والحضارة إبداع دائم مستمر ، فإذا ما فقد الإنسان القدرة على الإبداع . وإذا ما فقد طاقته ، ولم يتسن له أن يصبح إبداعه مبهراً ، ووقف أمام قوة الآلة العظيم مشدوها حائراً ، وحالت الرهبة فى قلبه بينه وبين العلم والعمل ، فإن الحكم القاسى الذى ينتظره سيكون رهيبا لأن معناه وقوف مسيرة الحضارة وهى فى قمة الازدهار .

- ٢ -

عجلة الحضارة تبدو جليا اليوم أنها تسير إلى الوراء ، وأنها

صارت تعنى بالماديات دون الروحيات والمعنويات ، وأنها أصبحت مصدر عذاب للإنسان ، لا مصدر سلام وأمن ، وأن المواهب العظيمة صارت شبه مفقودة ، وصار الإبداع الحقيقى شبه معدوم ، وضعف أمر الفن والثقافة عند أجيال الشباب ، وذلك كله قد أدى بنا إلى ضعف ملموس فى الصناعة ، بل وفى كل شىء : فى الثقافة والتربية، فى الابتكار والتجديد ، وفى الفنون عامة ، وفى كل مجال للموهبة الانسانية .

طالب الجامعة اليوم لم يعد هو طالب الجامعة بالأمس ، الموظف اليوم غيره بالأمس ، الفلاح والعامل والصانع ، بالرسم والصورة والفن ، وكل عمل مبدع لم يعد كما كان بالأمس .

تغيرت الأمور كثيراً عن ذى قبل ، وكان تغيرها إلى الأسوأ لا إلى الأحسن . وإلى الوراء لا إلى الأمام .. فى التعليم ، فى الصناعة ، فى الزراعة ، فى الفنون والآداب والفكر ، إلى غيرها .. ولم نعد نجد مثل عباقرة الأمس فى كل مجال .

قد يكون السبب فى ذلك السرعة التى يؤمن بفلسفتها اليوم عصرنا الحضارى ، وقد يكون السبب يكمن فى فقدان المعنويات والروحيات والمثل من عالمنا الحضارى ، وقد يكون السبب هو فقدان الإنسان لحريته وكيانه وشخصيته أمام جبروت الآلة العظيم .. وقد يكون غير ذلك من الأسباب .

أنا أفهم أن جيل اليوم من الحتم أن يكون أحسن من جيل الأمس، وأن جيل الغد يجب أن يكون أفضل من جيل اليوم ، ولكن الأمر على العكس من ذلك تماما ، ومعنى ذلك أن الميزان أصبح مقلوبا ، وأننا سنعيش عصرا مقبلا ترى فيه فناء الحضارة واندثارها ،

أو عودة إلى حضارة أخرى ذات قيم ومعنويات ، وليست هى إلا حضارة الروح .

هل لابد أن تكون حياتنا دائما مهددة بانقراض كل ما بنته الإنسانية لنا من قبل ، من مثل رفيعة طيلة العصور والأجيال؟ (١) .

-٣-

ويقول السيد يسين(٢) :

إن هناك خطأ شائعاً فى الحديث عن حوار الحضارات وكأننا نعيش فى ظل حضارات متعددة مع أن الواقع يقول إنا نعيش فى ظل حضارة واحدة تقوم على أسس الثورة العلمية والتكنولوجية ، وأضيفت إليهما الثورة الإتصالية الكبرى . وذلك لا ينفى أننا فى العالم نعيش فى ظل ثقافات متعددة لكل منها رؤيتها المتميزة للعالم . وعلى ذلك فمن الأفضل أن نتحدث عن حضارة واحدة وثقافات متعددة . وليس هناك شك فى أن كل ثقافة معاصرة لها استراتيجياتها فى الفهم والتأويل والتعامل مع هذه الحضارة الواحدة . ومن هنا فلابد من ممارسة حوار الثقافات .

وأهمية هذه الممارسة ظهرت فى العقود الأخيرة بحكم تزايد الوعى الكونى بأن الإنسانية تعيش فى قارب واحد ، ومن ثم فهناك

(١) راجع :

- الإسلام فى ظل العولمة . للدكتور رقزوق .
- عالم إسلامى بلا فقر - كتاب الأمة - العدد ٧٩ - د. رفعت العوضى .
- الحضارة د . حسين مؤنس - عالم المعرفة - العدد ٢٣٧ . الكويت .
- عالمنا حضارة أم حضارات - دار الوفاء بالمنصورة .
- الإيمان والحياة - د . القرضاوى - مكتبة وهبة - القاهرة .

(٢) الأهرام عدد ٢٠٠٣/١١/١٣ .

حاجة للتصدى للمشكلات والتحديات التى تواجه الإنسانية عموما بالإضافة إلى التصدى لمشكلات الإدراك التى تقع بين ثقافة وأخرى . وأبرز مثال على ذلك ضرورة الحوار بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية .

أصبح هذا الموضوع له أسبقية كبرى بعدما نشر عالم السياسة الأمريكى صمويل هنتنجتون مقالته الشهيرة «صراع الحضارات» ، والتى تحولت من بعد إلى كتاب له صدى عالمى ، والتى تنبأ فيها بأن الحروب الثقافية هى التى ستسم المستقبل . ورشح لذلك حربا ثقافية بين الإسلام والغرب أو بين الحضارة الغربية والحضارة الكونفشيوسية .

إن ممارسة حوار الثقافات للوقوف ضد الهيمنة العالمية أصبح فى مقدمة أهداف الحوار .

ولعل هذا هو الذى دفع «بالأكاديمية اللاتينية» التى يرأسها فريدرك مايور السكرتير السابق لليونسكو ، وتضم مجموعة من كبار المثقفين والمفكرين والأدباء الذين ينتمون إلى الثقافة اللاتينية ، إلى أن تركز جهودها فى مجال حوار الثقافات على ممارسة الهيمنة بكل أشكالها السياسية والاقتصادية والثقافية .

وكان هذا الموضوع هو محور المؤتمر الذى عقدته الأكاديمية فى لشبونة فى الفترة يومى ١٨، ١٩ أكتوبر ٢٠٠٣م .

ويقول د. أحمد المزينى[(١)] :

توجد هناك علاقة ، بل علاقات وصلات ، بين مختلف الحضارات البشرية ، بعضها يكون ظاهراً للعيان ، وبعضها يكون خافيا عن الأذهان .

---

(١) ص ٤٦ الوعى الإسلامى - العدد ٤٥ - رجب ١٤٢٤هـ .

الفصل الثانى

فى مواكب الحضارة

انتقال الحضارات

- ١ -

الحضارات العالمية القديمة ، كالحضارة الفارسية والإغريقية والرومانية والمصرية والصينية وسواها من مختلف الحضارات العالمية البائدة ، قد مثلت دورها على مسرح الحياة في فترة من فترات عصور التاريخ ، ثم انتهت كأن لم تكن الأمس .

وورثتها الحضارة الإسلامية التى ازدهرت فى بغداد والقاهرة ودمشق وقرطبة والقيروان وأصفهان وجرجان وبخارى وسمرقند وغيرها من عواصم العالم الإسلامى الممتد من الصين شرقا إلى بحر الظلمات غرباً (أو المحيط الأطلسى) ، ومن أوروبا شمالا إلى أواسط قارة أفريقية جنوبا ، وكانت هذه العواصم الإسلامية تسبح فى نور العلم والمعرفة والتقدم والمدنية ، وفى ظلال الأمن والرخاء والرفاهية والسلام .

حضارة شريفة نجمت من أصول شريفة ، وقامت عليها دولة جمعت كل أصول التقدم في السياسة والفكر والاجتماع والاقتصاد وكل جوانب الحياة الرفيعة ، وشهد لها العلماء والمفكرون والمشرعون فى كل عصر وكل جيل ، حضارة أعتزت بها الدنيا ، ودوت بذكرها الآفاق ، وعاش فيها الناس أحرارا مكرمين ، ينعمون بشتى ألوان السعادة والثراء والرخاء والتقدم . وكانت أوروبا تنظر إليها ، وتذهل لهذا التفوق الحضارى الفريد ، ويصيح شاعر كبير مثل (بترارك) الشاعر الإيطالى فى العصور الوسطى في مدينة روما قائلا : « يالله ،

لقد تفوقنا على كل الأمم إلا العرب الذين أذلونا بحضارتهم ، فيا للخزى ويا للألم » .

وجاء دور أوروبا الظامئة المجردة من كل شيء ، فنهلت من حضارة العرب وعلومهم وثقافاتهم حتى استطاعت أن تقوم على أقدامها ، ثم استطاعت أن تملك زمام المبادرة ، وتأخذ العنان بيديها من العرب ، وأن تنشئ لها حضارة جديدة تخالف الحضارات الأخرى، وتتفوق على حضارة العرب ، لا فى الروحانيات ، بل فى الماديات وحدها .

تقول (هونكة) المستشرقة الألمانية فى كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب» : «كل موجة علم أو معرفة قدمت لأوروبا كان مصدرها البلدان الإسلامية» «شمس العرب ٤١» .

ويقول غوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) : حضارة أوروبا مدينة للعرب بحضارتهم ، فالعرب هم الذين فتحوا لها ما كانت تجهله من المعارف الفلسفية والعلمية والأدبية ، فكانوا دائنين للغرب وأئمة له . وعن طريقهم اهتدى الغرب إلى تراث الإغريق ، وكشف ماضيه ، فأخذوا يبحثون عنه .

ـ ٢ ـ

إن الأصول العلمية والفكرية لحضارة الإسلام وللفكر الإسلامى قد أخذها الغرب وصاغ منها حضارته التى هى صدى كبير للحضارة الإسلامية .

وعن حضارة الغرب يقول «بول فاليرى» شاعر فرنسا الكبير : «فرنسا وانجلترا وروسيا ، وألمانيا ، ويالها من أسماء كانت جميلة ،

كما كانت أسماء نينوى وبابل وعيلام جد جميلة ، ولحاق هذه الأسماء الراهنة بأسماء الأمس الغابر لم يعد شيئا مستعصيا على الإدراك» .

ويقول (فولتى) من كبار رجال الفكر الأوروبى : «ماذا أصاب تلك البدائع الراهنة التى حققتها يد الإنسان . أين هى حصون نينوى وجدران بابل ؟ ومن يدرى ؟ لعل مسافرا فى المستقبل يجد نفسه عند شواطئ السين والتايمز يجلس باكيا على بقايا الفتات الذى تحولت إليه معالم الحضارة حول هذه الأنهار» .

ويعجب دنيس دورجمون من العدد الذى يتضاعف بصورة مستمرة من الأوروبيين الذاهبين إلى حال الحضارة الغربية ، ومن المتنبئين الذين يفضلون الحديث عن كشوفها .

- ٣ -

ويقول إقبال شاعر الإسلام : «مثلت حضارة الغرب دورها ، أينعت كالفاكهة وحان قطافها ، ولسوف تمخض الإنسانية عن عالم جديد ، وهذا العالم لا يحسن تصميمه إلا من بنى للبشرية البيت الحرام ، وورّثَ محمداً وإبراهيم قيادة العالم» .

ورأى إقبال يكاد يكون تفسيرا للآية الكريمة : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ «يونس ٢٤»، فالمعنى على هذا هو فناء حضارة عجيبة من حضارات الحياة الدنيا ، كانت قد بلغت غاية نمائها وازدهارها ، بأمر الله وقدرته ، وفى لحظة من ليل أو نهار.

وما يقوله إقبال يقوله مفكرو العالم وفلاسفته فى كل لحظة ،

ونحن نعلم أن ميزان القوة فى العالم متغير أبداً ، وعلى امتداد التاريخ. ولعل هؤلاء جميعا قد نظروا إلى خلو الحضارة الغربية من كل القيم الروحية والخلقية واهتمامها بماديات الحياة ، وقد أدرك مفكر إنجليزى ذلك حيث كتب يقول : «لا يساورنى شك فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين ، وتتماسك أطرافها تماسكا قويا ، وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الإسلام هى حضارة العرب .

***

في مواكب الحضارة

- ١ -

قاد العرب مواكب الحضارة فى العالم أكثر من عشرة قرون طويلة ممتدة ، فبنى المسلمون المدن والمدارس والجامعات ودور الكتب ، وشجعوا العلماء ، وأقاموا المراصد ، وأنشأوا المستشفيات وأسسوا الملاجئ ، ورصدوا الأوقاف الإسلامية لينفق من ريعها فى أعمال البر والخير ، وأنفقوا أوقات فراغهم فى التأليف والكتابة والترجمة ، وكانت دور الحكمة فى بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة تمد الجسور الثقافية والفكرية بين حضارة الإسلام وحضارات العالم .

وكانت الهجرة النبوية الشريفة هى المقدمة العظيمة لمواكب العلماء المسلمين التى خرجت من مدينة رسول الله ﷺ إلى كل مكان فى العالم ، تنشر التوحيد ، وتدعو إلى العدل والخير والإحسان ، وإلى المساواة والإخاء ، وإلى الحرية والعزة والكرامة ، وتُنْهى عهود الظلام والهمجية والوحشية والبربرية والاستعباد والطغيان ، وتنادى فى الناس بقول عمر : متى استعبدتُم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟

بعد الهجرة مباشرة أسس رسول الله ﷺ فى المدينة المسجد النبوى الشريف ، فكان بيت التوحيد ، وبيت العلم ، وبيت العبادة ، والجامعة الأم الأولى فى الإسلام ، ومنه انطلق الدعاة المسلمون إلى كل مكان فى العالم ينشرون دين الله ومبادئ الإسلام والقرآن العظيم.

- ٢ -

تُرى لو كانت الهجرة النبوية لم تحدث أكان يمكن أن يقع كل ما وقع بعدها من بناء للأنسان وللمجتمعات وللأمم وللحضارة؟

أكان يمكن أن نرى العلماء يخرجون من المدينة إلى العراق والشام ومصر وإفريقية والأندلس وفارس وخراسان ،وكل مكان فى العالم لتعليم الناس ، ونشر مبادئ القرآن الكريم ، والدعوة إلى الفضيلة والشرف والأمانة والخير فى وسط كل المجتمعات الجاهلية المستعبدة المحرومة من نور العلم والعدل؟

ترى لو لم تحدث الهجرة أكان يمكن أن يظل الرسول ﷺ وأصحابه على قيد الحياة ، وأن تظل رسالة الإسلام باقية حتى اليوم؟

ومن ثم فإن الهجرة النبوية الشريفة تعد علامة مضيئة فى تاريخ البشرية وتاريخ الإسلام والمسلمين على طول العصور والأجيال .

- ٣ -

وببصيرة عمر بن الخطاب التى كأنها الوحى المنزل من السماء جعلها عمر مفتتح التاريخ الهجرى الإسلامى ، وأرّخ بها الأيام والسنين ، وأجمع المسلمون على تصويب ما فعل عمر ، وساروا فى ضوئه ، وعلى نهجه .. ومن ثم كانوا هم المُمَدِّنين للأمم والشعوب وللعالم كافة .

وبعد الهجرة وفى المدينة المنورة قام أول مجتمع إسلامى ، وأول دولة إسلامية ، وأول قوانين نزلت من السماء لهداية الإنسان ، وتأصيل الحضارة ، والعمل من أجل التقدم والرخاء والرفاهية والحضارة وكرامة الإنسان وحقوقه .

مسيرة الحضارة بين الأمس واليوم

- ١ -

المدنية هى التقدم المادى للشعوب ، والحضارة هى التقدم المادى والروحى للعالم .. إن المدنية جزء من الحضارة ، والحضارة أشمل فهى صياغة فكرية للعلوم والثقافات والمعارف والآداب والفكر ، وهذه الصياغة يدخل فى أنسجتها كل ما يحرزه العالم من تقدم ورخاء مادى.

فالحضارة كما عرفنا وكما يعرفها الفلاسفة ، هى القيم الروحية والمادية ، والتقدم الروحى والمادى للأفراد والجماهير على السواء .

وقد تطلق الحضارة مرادفة للمدنية فى عرف بعض المفكرين ، فالحضارة والمدنية على ذلك شىء واحد أو قل على الأقل ، إنهما وجهان لعملة واحدة هى التقدم .. مدنية المسلمين سبقت فابتكرت الكثير والكثير فى العلوم والفنون والآداب ، وعاش عليها العالم وسكن فى ظلها عصورا طويلة .. أما مدنية الغرب فأخذت عن الإسلام المنهج والتطبيق ، والكثير من الأصول والفروع ، وغزت الفكر والأفاق فى سرعة وتجرد من كل القيم الروحية ، وجحود بكل ما يمت إلى الدين بصلة ، وأرهقت الأمم والشعوب والجماعات والأفراد إرهاقا شديدا ، مؤمنة فى مسيرتها بفلسفة القوة والتفرقة العنصرية ، وبأن الغاية تبرر الوسيلة ، وبأن الشعب الأوربى هو سيد الشعوب ، ومالك زمام العالم وحضارته ، وقسمت البشر إلى طبقات، ووضعت العرب والمسلمين فى آخر الدرجات .

- ٢ -

ويعتقد الغرب أن الشرق لا يمت إلى المدنية بصلة ، وأن ما وصل إليه هو عالة فيه على حضارة الغرب اليوم ، كما أن ما وصل إليه من قبل من مدنية كان عالة فيه على الإغريق وحضارتهم .. منطق عجيب ، وتفكير غريب حقا .

نحن والغرب ، شعوب الإسلام وشعوب أوروبا ، فرسا رهان يسيران معا فى مضمار الحياة والمدنية ، ويعملان من أجل سعادة العالم ورخائه ، سبقنا حينا ، ثم سبقنا الغرب ومازال يسبقنا بزمن طويل ، لكن ليس معنى ذلك أن تستمر المسيرة إلى غد وإلى ما بعد غد . ولله فى خلقه شئون .

مدنية الحرية المادية والروحية معا ، هى مدنية الشرق ، التى يفتقدها الغرب وحضارته . هى مدنية الإسلام ، يتحرر فيها الإنسان من عبودية العبيد للعبيد ، ويحتفظ بكرامته على اختلاف مركزه المادى والدنيوى ، ويرفع جبهته فلا تنحنى إلا لله ، ويبتعد عن الاستكبار فى الأرض بغير الحق ، وعن الغلو فيها والفساد ، ومن ثم فلا تعارض فى مدنية الغد ، المدنية التى ستشرق على العالم يوما من الأيام ، وسيعم نورها الأفاق بمشيئة الله بين رفعة الإنسان وعظمته وكرامته وفاعليته وإرادته ، وبين عبوديته لله سبحانه ، وتفرد العظمة الإلهية وحدها بالربوبية للبشر أجمعين .

- ٣ -

إن مدنيتنا عرفت الحرية والمساواة والإخاء ، وطبقتها تطبيقا شريفا عاما نبيلا على البشر أجمعين ، وعرفت العدالة وحقوق

الإنسان ، وأدخلتها فى كل تشريعاتها الفردية والاجتماعية والقومية والدولية ، وكما قال رسول سعد بن أبى وقاص ـ وهو ربعى بن عامر ـ لرستم قائد جيش الفرس عن الإسلام والمسلمين : لقد ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

مدنية الغرب اليوم صارت تؤله الفرد كما تؤله الذهب والجنس ، وصارت غارقة فى عبادة العباد .. ومن ثم لابد من أن ترجع إلى مدنية الروح الشريفة التى تخرج الناس جميعا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن الظلمات إلى النور الشامل المضىء .

الإنسان اليوم قد فقد حريته ، وهو مفتقر إلى قوة التركيز الذهنى ، وإلى فرصة التأمل والتطور الشامل ، إنه فى خطر داهم أن يفقد إنسانيته .. ومن ثم فلابد له من أن يرجع إلى مدنية الروح وحضارة الشرق .

ـ ٤ ـ

وتطور الحضارة ـ كما يقول : «اشفيت» إنما يقوم به عادة أفراد من الناس يفكرون فى المثل التى تهدف إلى تقدم المجموع ويكيفون مع وقائع الحياة على نحو يجعلها قادرة على التأثير الأقوى فى ظروف العصر ، ولهذا كانت مقدرة الإنسان مبنية على أن يكون رائداً للتقدم، أى أن يفهم ماهية الحضارة ، وأن يعمل لها وهذا متوقف على كونه حرا ، إذ يجب أن يكون مفكراً ، ليكون قادراً على فهم مثله وتصورها ، ويجب أن يكون حرا ليكون فى خضم الحياة العامة ، وكلما ازداد نشاطه فى الكفاح من أجل الوجود ازداد عنده الدافع إلى اصلاح أحواله طلبا لنصيبه من المثل الفكرية ، وحينئذ تختلط مثل

الحياة الذاتية ومصالحها ، مع مثل الحضارة ، وتفسدها . والحرية المادية مرتبطة بالحرية الروحية ارتباطا وثيقا ، فالحضارة تفترض أناساً أحراراً، لأنها بالأحرار وحدهم تتحقق الحضارة . . وهذا التشخيص الدقيق لحضارة العصر ، كما يذهب إليه فلاسفة الحضارة الأوربية ، يؤدى بسفينة المدنية الإنسانية إلى الإسلام الذى يجعل الإنسان فى أرفع مقاماته ومنازله ، وفى أحسن حالات مدنيته ، حين يحقق تمام العبودية لله وحده ، إذ أنه وهو يصنع الحضارة يكون فى أقوى حالات فطرته .

***

الفصل الثالث
أثر العرب فى قيام الحضارة الغربية

أثر العرب فى قيام النهضة الغربية

ـ ١ ـ

بدأت حركة ترجمة من العربية إلى اللاتينية بغية الاستزادة من معرفة هؤلاء الذين شغلوا العالم بحضارتهم حتى انتهت بنتائج باهرة ولا ينبغى لنا ان ننسى هنا ايضا ان الجامعات الأوروبية انما نشأت هى الاخرى تقليدا للجامعات العربية الإسلامية فى الأندلس . . وهذه الجامعات العربية كانت ابتداء من القرن العاشر الميلادى تغص بطلاب العلم من الأوروبيين وخاصة من رجال الأكليروس من مختلف انحاء غرب اوروبا ؛ وهؤلاء عندما عادوا الى بلادهم لم يتوانوا فى العصيان على الجمود الذى انطبعت به حياتهم . وكانت النتيجة لحركة العصيان هذه التى نمت داخل الكنيسة وبرجالها ذاتهم قبول آباء الكنيسة ـ حسما لهذا العصيان الذى كان يهددهم ـ تعليم الفلسفة والعلوم ، الدنيوية فى المدارس الاسقفية ، وهذا القبول من ناحية ادى مباشرة الى نشوء الجامعات الأوروبية . وفى الحقيقة فان موقف المسلمين فى الأندلس وفى مختف انحاء العالم العربى فى عصر ازدهار الحضارة العربية وقبولهم فى الجامعات الإسلامية ايا كان طالب العلم مع تقديم الطعام والمسكن فى بعض الاحيان ، كان صورة من التسامح الخلاق الذى طبع حياة المسلمين بطابعه . وهذا كان مخالفا تماما للتعصب الذى طبع به رجال الكنييسة عصرهم والذى كان سائدا فى ذلك العصر .

كانت جامعة قرطبة قبلة العلم والمعرفة ومنهلا من مناهل الحضارة الإسلامية ، حيث كان يقصدها الطلاب ورواد المعرفة والعلم من كافة انحاء اعالم ، وقد أخذ العلم العربى الإسلامى يكتسب شهرة واسعة

فى العالم اللاتينى . وكانت تعاليم الاساتذة العرب فى صقلية أيضا قد بدأت تنتشر وتستحسن ، وكانت الأندلس فى ظل الحكم الإسلامى ارض الأعاجيب حيث ظهرت فيها المهارة الإنسانية بابهى صورها الثقافية وفى مختلف فروع العلوم والآداب والفنون . واكتسب العرب شهرة عريضة واسعة عن طريق المأثر الباهرة التى حققها العلماء والفلاسفة والشعراء المسلمون وعمل المجتمع العربى على نشر التعليم فى كل مكان . وفى القرن العاشر الميلادى أصبحت قرطبة تطل برأسها من نور الأندلس على دياجى الجهل السائدة فى ارض الظلام .

- ٢ -

والأغلب ان الرهبان اذين كانوا يعودون الى ديارهم من الأندلس بعد انتهاء م تعليمهم لم يعودوا كما جاءوا وإنما كانوا يعودون ومعهم مخطوطات علمية اما بلغتها العربية واما بعد ترجمتها الى اللاتينية ، فهناك تأثيرات فكرية عربية نفذت إلى عقولهم فى عصر مبكر . ذلك ان (أونو الاول) عندما اراد ان يرسل مبعوثا الى الخليفة الاموى الاندلسى عبد الرحمن الثالث سنة٢٩١هـ / ٩٠٣م نراه اختار راهبا يدعى جون من رهبان دير جورتز بجوار نتز باللورين . ويرى بعض المؤرخين أن ذلك الاختيار ربما كان مبعثه الاول ان هذا الراهب كان ملما بشؤون المناطق التى يحتلها العرب . وهناك الشخصية المسيحية الهامة وهو الراهب الفرنسى جربير الذى تربع على عرش البابوية فى روما تحت اسم سلفستر الثانى (٣٩٠ ـ ٣٩٤هـ/ ٩٩٩ـ١٠٠٣م) والذى أقام زمنا فى الاندلس وتعلم العربية وكان يتكلمها بفصاحة وتابع تعلمه فى برشلونة ، ولقد شاع فى الخارج انه لا يكتفى بتدريس فلسفات القدماء وانما عمد الى التوسع فى العلوم الطبيعية المأخوذة عن

العرب المسلمين.

ـ ٣ ـ

كانت نظرة اوروبا الجديدة اى المعارف الدنيوية وتطلعها الى تقليد العرب رغبة منها فى الوصول الى نفس الامجاد سببا مباشرا فى تلك اليقظة التى نتج عنها حركة من اهم حركات تاريخ الحضارة وهى حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية . وقد حاول الاوروبيون اخفاء القيمة الحقيقية للعلوم المترجمة فى هذا العصر ومقدار اسهام العرب المسلمين فى تطويرها وتجديدها واعطائها الصورة التى انتقلت بها الى اوروبا . والسؤال اذى دار وبدأ فى اذهان الباحثين المفكرين هو : هل العرب مجرد ناقلين للحضارة اليونانية ام ان لهم دورا ايجابيا فعالا ؟ وما قيمة الدور الذى ادوه فى تاريخ الحضارة وخاصة العلوم ؟ وهل كان من الممكن لأوروبا ان تبنى نهضتها العلمية على انقاض العلم اليونانى وحده أم لا ؟

ـ ٤ ـ

يقول المؤرخ الاوروبى دريبير فى معرض دفاعه عن حضارة العرب المسلمين وتسفيه الطريقة التى انتهجها زملاؤه من كتاب اوروبا للتعتيم على حقيقة فضل العرب على الحضارة : «لا ينبغى ان أنعى على الطريقة الرتيبة التى تحايل بها الدب الاوروبى ليخفى عن الانظار مآثر المسلمين العلمية علينا ، أما هذه المآثر فانها على اليقين سوف لن تظل كثيرا بعد الأن مخفية عن الأنظار . ان الجور المبنى على الحقد الدينى والغرور الوطنى لا يمكن ان يستمر الى الابد . .» .

ريقول سارتون : «حقق المسلمون عباقرة الشرق أعظم المآثر فى

القرون الوسطى فكتبوا اعظم المؤلفات قيمة وأكثرها أصالة واغزرها مادة باللغة العربية وكانت من منتصف القرن الثمن حتى نهاية القرن الحادى عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشرى حتى لقد كان ينبغى لأى كان اذا اراد ان يلم بثقافة عصره وبأحدث صورها ان يتعلم اللغة العربية . ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها» .

ويقول نيكلسون : «ان اعمال العرب العلمية اتصفت بالدقة وسعة الافق وقد استمد منها العلم الحديث مقوماته بصورة اكثر فاعلية مما نفترض» .

ويقول المؤرخ سيديو : «تكونت فيما بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر مجموعة من اكبر المعارف الثقافية فى التاريخ وظهرت منتوجات ومصنوعات متعددة واختراعات ثمينة تشهد بالنشاط الذهنى المدهش فى هذا العصر وجميع ذلك تأثرت به اوروبا بحيث نؤكد القول : ان العرب كانوا اساتذتها فى جميع فروع المعرفة . لقد حاولنا ان نقلل من شأن العرب ولكن الحقيقة ناصعة يشع نورها من جميع الارجاء وليس من مفر امامنا الا ان نرد لهم ما يستحقون من عدل ان عاجلا أو آجلا» .

أما جوستاف لوبون فيقول : «كان تأثير العرب فى الغرب عظيما للغاية فأوروبا مدينة للعرب المسلمين بحضارتها» .

ـ ٥ ـ

ويقول وزير الخارجية البريطانية روبين كوك(١) : ان جذور ثقافتنا الانجليزية ليست يونانية أو رومانية الأصل فحسب ، بل هى إسلامية أيضا . . فالفن الإسلامى والعلوم والفلسفة الإسلامية قد ساعدت

(١) جريدة الاهرام ١٦/ ١٠/١٩٩٨ محاضرة له فى المركز الإسماعيلى فى لندن

على تشكيل تطورنا ، والأرقام الإسلامية ما زالت يعتمد عليها وهى التى علمتنا طريقة العدد الصحيحة .

ثم أن ثقافة الغرب مدينة للإسلام ونحن نقوم حاليا بتطوير علاقتنا مع العالم الإسلامى بعدما سمحنا للأيام أن تباعد بيننا وأتحنا لشيء غير قليل من التفاهم أن ينمو ويكبر ولا يفرق بين الغرب والإسلام . . ولا ينبغى أبدا أن يترك سوء التفاهم ليستمر ويتواصل ، فليس من المعقول أن تصدر كل من هاتين الحضارتين العظيمتين حكما جائرا على الحضارة الأخرى بهذه الصورة المؤسفة .

وأضاف : إن عالم اليوم لا يترك خيارا أو مفرا من ضرورة العيش معا والعمل متآزرين فى سلام ووئام ، وان التحديات التى نواجهها هى تحديات عالمية ، والبعض يقولون ان الغرب بحاجة إلى عدو بعد انتهاء الحرب الباردة وان الإسلام هو العدو الجديد الذى سيأخذ مكان الشيوعية فى الأتحاد السوفيتى القديم ، كما يقولون : إن «صراع الحضارات» قادم ولا مفر منه . . وأنا أقول اننا لسنا بحاجة إلى الإسلام كعدو ، بل نحن فى حاجة إليه كصديق فقد تكون حضاراتنا مختلفة ، وقد تكون متفقة ولكنا لا نستطيع إلا أن نتعايش معا .

إنه لابد لنا من أن نعمل معا لتحسين التفاهم بيننا وتوضيح تلك الصور الخاطئة والمشوهة لبعضنا البعض ، وعلينا أن نتخلص كلية من مشاعر عدم الثقة التى تضر بالجميع .

وأكد كوك تقدير الغرب للإسلام ، فقال : أنه عادة ما ينظر كل منا إلى الأخر من منظور صورة مشوهة . فالمجتمعات الإسلامية تنظر إلى الروحانية ، ونؤمن بأن الغرب يسعى جاهدا لترويج القيم الغربية المتحررة بهدف تفويض المجتمعات الإسلامية . . وان الغرب من ناحيته

يسوى بين الإسلام والتطرف الذى يمارسه البعض ، لكن هذا ليس حقيقيا فعدد كبير من وسائل الإعلام هنا بلندن لا ينظر إلى الإسلام باعتباره ثقافة غنية جليلة مزدهرة ومتنوعة تدعمها ديانة من أعظم الديانات فى العالم، بل ينظر إليه من منظور الأعمال الإرهابية التى يرتكبها القلة باسم الإسلام ، ان كلتا النظرتين فى غير محلها ، والقائل بأن الحضارتين ثقافتهما غير متجانسة مخطىء ، فهناك قدر كبير من المعارف يمكن أن نتعلمه من بعضنا البعض لتحقيق الاستفادة المتبادلة .

إن الغرب مدين للإسلام بالشيء الكثير ، فالإسلام وضع الأسس الفكرية لمجالات عديدة مهمة وكبيرة فى الحضارة الغربية ، والأرقام العربية التى نستعملها عرفت من العرب ، فأسس حضارتنا يعود الفضل فيها إلى الإسلام . . لذلك فإن من أكبر الأخطاء التى يمكن للغرب أن يرتكبها هو الظن بأن الثقافة الإسلامية شيء غريب عنا فهى ليست كذلك فإن ثقافتينا قد تشابكتا عبر التاريخ والأجيال ومازالتا تتلاقيان أيضا فى وقتنا الحاضر .

واقترح كوك أن نبدأ حوارا جديا بين أوروبا والعالم الإسلامى . فقد حان الوقت لكى يبدأ الاتحاد الأوروبى ومنظمة المؤتمر الإسلامى بالالتقاء على أعلى مستوى ممكن للتفاهم والحوار حول القضايا العديدة التى تهم الجانبين فنتكلم معا عن البلقان وعن عملية السلام فى الشرق الأوسط ، وعن أفغانستان وعن الإرهاب ، ونتناول حقوق الإنسان ومعاملة الأقليات ، فالحوار البناء فقط هو الوسيلة للتفاهم بيننا وتدعيم الثقة .

وقال : اننى أتصور أن هذا الحوار يجب ألا يقتصر على

الدبلوماسيين أو حتى على وزراء الخارجية . بل يجب أن نجريه بين كل من أوروبا والعالم الإسلامى وشعوبهم مثقفين وفنانين وغيرهم ، ولن نخسر من التحاور بل سنخسر لو اننا لم نفعل ذلك .

واستطرد يقول : أن لدى بريطانيا ميزتين فى علاقتها مع العالم الإسلامى ، فنحن نشترك معه فى ألف عام من التاريخ المشُترك مع أنه لم يكن كله تاريخا سهلا أو يسيرا ، ولدينا فى بلادنا مجتمع مسلم مزدهر ففى بريطانيا أكثر من ٩٠٠ مسجد ، ويحق الأن للمدارس الإسلامية أن تلقى الدعم المادى من الدولة ، وكذلك نجد حوالى مليون ونصف مليون مسلم بريطانى يسهمون إسهاما كبيرا فى المجتمع البريطانى .

وأكمل حديثه قائلا : ان المسلمين البريطانيين يؤدون دورا كبيرا فى الحياة الثقافية والسياسية والاقتصادية للأمة ، وهو دور أخذ فى الأزدياد المستمر ، وان مقدرتهم فى الأعمال التجارية تساعد على دفع الاقتصاد البريطانى وتقويته ، وان شغف المسلمين بالعلم ومحبتهم له ينعكس على الاسهامات التى يقدمونها للمهن فى بريطانيا حتى أكلاتهم المميزة قد تركت انطباعا عميقا ودائما على الحياة البريطانية ، وفى عالم اليوم يمكن لبريطانيا أن تستفيد افادة متزايدة من كونها مجتمعا متعدد الثقافات والأعراق ، وأكد فى النهاية أن الحوار الذى يقترحه سيدعم أملا فى أن يعيش الغرب والإسلام معا فى وئام وسلام من أجل إثراء الحركة الثقافية والفكرية على أساس سليم خدمة لشعوبها .

- ٦ -

ويقول نلسون مانديلا : إن الدين الإسلامى «دين خير اسهم فى

بناء افريقيا وتحريرها» وأشاد بالدور الذى لعبه مسلمو جنوب افريقيا فى مسيرة النضال ضد نظام الحكم العنصرى ، والدور الذى يلعبونه اليوم فى بناء دولة المساواة والعدالة والأخاء ، مشيرا الى وجود ثلاثة وزراء مسلمين فى حكومته .

واكد مانديلا فى محاضرة تحت عنوان «الانبعاث والتجدد نحو نظام عالمى جديد» ، القاها فى جامعة اكسفورد فى بريطانيا بدعوة من «مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية» : «ان القارة الافريقية التى كانت مهملة لوقت طويل ستأخذ مكانها الصحيح فى النظام العالمى الجديد وسيكون لها دورها المؤثر فى بناء السلام والعدالة منطلقة على هذا الطريق من مبادىء الدين الخيرة وبمشاركة من الجميع ، اذ لم يعد لأى فريق ان يعيش وحده معزولاً عن الأخرين فى العالم» .

واعتبر ان «التفاعل والتعاون بين الاديان المهمة فى القارة الافريقية، وهى الإسلام والمسيحية والأديان الافريقية الأخرى ، سيكون من أهم العناصر والاهداف التى ستقرر مستقبل القارة الافريقية سياسياً واقتصاديا وانمائياً» .

وأضاف ان الدين الإسلامى هو الدين الأول لعدد الافريقيين الذين يعتنقونه وهم الأكثرية .

وأشاد بالدور القيادى والمهم الذى قام به زملاؤه المسلمون فى مسيرة النضال ضد نظام الحكم العنصرى البائد فى جنوب افريقيا ، كما أكد أهمية الدور الذى يلعبه مسلمو هذا البلد اليوم فى بناء دولة المساواة والعدالة والأخاء جنباً الى جنب مع الهندوس والمسيحيين واليهود والأعراق المختلفة .

وشدد الرئيس مانديلا على أهمية مواجهة التحدى الذى يواجه

العلم اليوم وايجاد صيغة تؤمن بالقدرة على التخلص من أفات الحروب والفقر والأوبئة وإقامة قاعدة للتعاون بين كل الاديان لبناء مجتمع دولى جديد لا تفرقة فيه بين انسان وأخر على اساس الدين او العرق .

وعرض مانديلا تاريخ انتشار الدين الإسلامى فى افريقيا ، وقال انه دين خير اسهم فى بناء افريقيا وتحررها ، وانه يتفاعل مع الدين المسيحى والأديان الأخرى بكل تسامح ورحمة . وقال ان مسلمين كثيرين «استشهدوا فى المعتقلات وهم يكافحون للقضاء على العنصرية فى جنوب افريقيا ، وهذا يعطى فكرة واضحة عن التضحيات وروح المشاركة» .

وقال ان مسلمى جنوب افريقيا ينالون حقوقهم كاملة ، ومن ذلك الاعتراف رسميا بعقود الزواج على الطريقة الإسلامية .

وشدد على أهمية الدور الذى يلعبه مسلمو جنوب افريقيا فى اقامة أفضل علاقات للتعاون .

- ٧ -

وقد ألقى[١] ولى عهد بريطانيا فى ٢٧ أكتوبر ١٩٩٣ فى أوكسفورد فى زيارته لمركز الدراسات الإسلامية محاضرة تاريخية فى غاية الاهمية أكد فيها أن «الذى يربط العالمين الغربى والإسلامى أقوى بكثير من الذى يقسمها فالمسلمون والمسيحيون واليهود جميعهم «أصحاب كتاب» . والإسلام والمسيحية يشتركان فى النظرة الوحدانية: الإيمان باله واحد، وبأن الحياة الدنيا فانية ، وبالمسئولية عن أفعالنا ، والإيمان بالأخرة . إننا نشترك فى كثير من القيم» .

(١) مجلة مبر الاسلام عدد شعبان ١٤١٩هـ .

وأشار إلى أن حكم الغرب على الإسلام قد عانى التحريف الجسيم نتيجة الإعتبار بأن التطرف هو القاعدة ، وقال : «إن التطرف ليس حكرا على الإسلام ، بل ينسحب على ديانات أخرى بما فيها الديانة المسيحية . والغالبية العظمى من المسلمين يتسمون بالاعتدال ... ودينهم هو دين الاعتدال» : وأشار كذلك إلى أن هناك الكثير مما يمكن أن نتعلمه من الإسلام «وأن العالمين الإسلامى والغربى يمكن أن يتعلما كثيرا من بعضهما البعض» .

ورفض مقولة «صدام الحضارات» قائلا : «أنا لا أوافق على مقولة أنهما (العالم الإسلامى والغربى) يتجهان نحو صدام فى عهد جديد من الخصومة والعداء ، بل إننى على قناعة تامة بأن لدى عالمنا الكثير لكى يقدماه إلى بعضهما البعض» .

كما أشار أيضا إلى أن الكثير من المزايا التى تفخر بها أوروبا العصرية قد جاءت أصلا من أسبابنا فى أثناء الحكم الإسلامى . وخلص إلى القول : «إن الإسلام جزء من ماضينا وحاضرنا فى جميع مجالات البحث الإنسانى . وقد ساهم فى إنشاء أوروبا المعاصرة ، إنه جزء من تراثنا وليس شيئنا منفصلا عنه» . وفى نفس الإطار نجد وزير الخارجية البريطانى (روبين كوك) يشير فى محاضرته فى المركز الإسماعيلى فى لندن فى ٨ أكتوبر ١٩٩٨ إلى أن جذور الثقافة الغربية ليست يونانية أو رومانية الأصل فحسب ، بل هى إسلامية أيضا . وبين أن التحديات التى نواجهها تحديات عالمية . ورفض مقولة صراع الحضارات ، وأن الإسلام هو العدو الجديد للغرب ويقول : «إن البعض يقول : إن الغرب بحاجة إلى عدو ، وبما أن الحرب الباردة قد ولت إلى غير رجعة فإن الإسلام سيأخذ مكان الاتحاد السوفيتى القديم

كعدو . ويقولون إن صراع الحضارات قادم وأنه لا مفر منه . وأنا أقول : إنهم مخطئون ، بل ومخطئون خطأ فادحا . فنحن لسنا بحاجة إلى الإسلام كعدو ، بل نحن بحاجة إلى الإسلام كصديق» .

- ٨ -

ويشير المنصفون من علماء الحضارة إلى أن «الغرب مدين للإسلام بالشيء الكثير فالإسلام قد وضع الأسس الفكرية لمجالات عديدة مهمة وكثيرة فى الحضارات الغربية . . . إن ثقافتينا قد تشابكتا مع بعضهما البعض عبر التاريخ والأجيال ، وهى تتشابك أيضا فى وقتنا الحاضر» .

- ٩ -

وقد ذهب الرئيس الألمانى (رومان هيرتسوج) خطوة أبعد فى هذا المجال ، مجال الحوار بين الحضارات ، بالدعوة إلى عقد مؤتمر فى برلين للحوار بين الحضارتين الإسلامية والغربية ، وقد وجه الدعوة إلى رؤساء خمس من الدول الإسلامية هى مصر والمغرب والأردن وإندونسيا وماليزيا ، ورؤساء خمس من الدول الأوروبية هى إيطاليا واسبانيا والنمسا والنرويج وفنلندا بالإضافة إلى الدولة المضيفة . وتم اللقاء فى ٢٣ ابريل ١٩٩٩م[١] .

ان العلاقة بين اوروبا والمسلمين مركبة ، ولذا فالحاجة ماسة الى استمرار الحوار الذى يجب ان يكون حوارا بين متساوين ، والفرصة أمام حوار الأنداد أصبحت الأن بعد انتهاء الحرب الباردة أفضل . وهذا الحوار هو السبيل للفت الانتباه إلى المصالح المشتركة فى استتباب

---

(١) مجلة منبر الإسلام ـ شعبان ١٤١٩ هـ .

السلام . وغايته هو توضيح المشكلات بغية حلها . والقضية الأساسية من ثم هى أمن الجماعات . وأن الفرد فى ظل هذه الحضارة مسلما كان أو مسيحيا يولى أهمية كبيرة للرؤية الايمانية الشاملة وللقيم الإخلاقية وتحكمه فكرة الحلال والحرام بداية ثم يأتى القانون ، وهو يعلى من شأن الحق والعدل والخير ويجعل لها الأولوية على اعتبار المصالح الفردية ، ويتمسك من ثم بالمعيار الواحد(١) .

ـ ١٠ ـ

إن الأساس الأعظم والأول للحوار بين الشرق والغرب كان الرسالة النبوية الشريفة التى بعث بها رسول الله ـ صلوت الله عليه ـ إلى هرقل ملك الروم فى السنة الثامنة للهجرة النبوية الشريقة ٦٢٨ م، وهى التى دعت إلى الحوار بين الشرق والغرب لأول مرة فى التاريخ ، وإلى دعوة هرقل للإيمان برسالة الإسلام دين الله العظيم .

(١) الاهرام ٢/٩/١٩٩٦ لأحمد صدقى الدجانى .

الفصل الرابع

حوار بين الشرق والغرب

ترجمة الثقافات فى القرن الثانى والثالث الهجرى

(أ)

كان للعباسيين وخاصة فى هذه الفترة شغف شديد بالعلوم والآداب ، وولع كبير بالمعارف والثقافات ، إذ تنوعت حضارتهم ، واتسع عمرانهم ، وامتد سلطانهم ، وانفسحت أطراف مملكتهم ، حتى شملت كثيراً من الأمم العريقة فى العلم ، الأصيلة فى الحضارة والمدنية .

وكانت هذه الأمم التى امتد نفوذهم إليها ، وانبساط سلطانهم عليها ، كالفرس والروم ، ذات علوم وآداب ومعارف ، تمخضت عنها عقولهم ، وتفتقت بها قرائحهم ، أو نقلوها عن غيرهم من الأمم التى اتصلوا بها من قديم . وقد وجد العرب أنهم أمام معارف يزخر بها العالم إذ ذاك ، ولا غنى لملكهم عنها ، فأقبلوا عليها بكل ما فيهم من شوق ونهم ، يترجمونها ويعربونها ، ويضيفون إلى قديمها جديداً ، تمخض عنه إدراكهم وتفكيرهم .

فلليونان حكمتها وفلسفتها وطبها ، ولها أعلامها الأفذاذ ، كسقراط وأرسطو وأفلاطون وغيرهم .

وللكلدانيين شهرتهم فى الطب والنجوم .

وللهند ثقافة واسعة مدونة فى النجوم والطب والحساب والآداب .

وكان للسريانيين ثقافة واسعة فى الطب والفلك ورصد الكواكب .

ولهم مدارس كثيرة تدرس فيها علومهم وآدابهم بالسريانية واليونانية، كمدرسة الرها ، وقنسرين ، ونصيبين .

وللفرس آداب وعلوم انتقلت إليهم من الهند والصين ، ثم من اليونان فى أزمنة مختلفة ، فقد ترجموا إلى لغتهم كثيراً من كتب اليونان ، كالمنطق . كما نقلوا من علوم الهند كتباً فى النجوم والطب والآداب. هذا بالإضافة إلى ماورثوه من علوم وآداب أصيلة عندهم.

وكان سابور بن أردشير «فى أواسط القرن الثالث الميلادى يبعث البعوث إلى بلاد اليونان لجلب كتب الفلسفة ، وترجمتها إلى الفارسية، وأنشأ مدرسة جنديسا بور المشهورة ، وكان أساتذتها من الهنود واليونانيين ، وجاء كسرى أنو شروان العادل (٥٣١ـ٥٧٨م) ففتح أبواب دولته للوافدين عليه من الفلاسفة اليونانيين الوثنيين الهاربين من اضطهاد جوستنيان» قيصر الروم لهم ، على إثر إقفاله المدارس والمعابد الوثنية وأكرمهم وطلب منهم التأليف والترجمة فى الفلسفة والطب والنجوم،كما أكرم وفادة العلماء الهنود والسريانيين .

واتصل المسلمون فى هذا العصر بثقافات تلك الأمم وعلومها وأدابها ، فازدادوا حبا لها ، ومعرفة بقيمتها ، ورغبة ملحة فى الإفادة منها . . وكان الفارسيون الذين وصلوا إلى أعلى مناصب الدولة يشجعون نشرها وتداولها ، كما كان الخلفاء يقبلون عليها ، ويحثون على ترجمتها إلى اللغة العربية .

وهكذا بدأت الترجمة فى العصر العباسى : صغيرة ناشئة ، ثم أثمرت ثمرها ، وآتت أكلها بعد قليل .

وكان الباعث على العناية بترجمة العلوم إلى العربية : ما آلت إليه الدولة من حضارة ومدنية مما استلزم تشجيع العلوم والآداب ،

وكذلك رغبة العلماء فى استخدام المنطق والفلسفة للدفاع عن الدين ، ثم كانت اللغة العربية غالبة على هذه الممالك المفتوحة . فكان لابد أن تنقل من معارفها وثقافتها أحسن وأروع ما تعتز به من آثار ، ومن هنا نشطت حركة الترجمة ، إذ وجدت فى اللغة استجابة وسرعة .

ومن البواعث كذلك تشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء للترجمة ، التى أصبحت هى الصلة الوثيقة بين العرب وعلوم الأمم القديمة وثقافتها .

ويعتبر كثير من مؤرخى الفكر حركة ترجمة العلوم فى العصر العباسى من أعظم الحوادث الفكرية فى تاريخ المسلمين ، وليس ثمة شك فى قيمة هذه الحركة الجبارة ، التى كان لها أكبر الأثار فى سير الحضارة الإسلامية والإنسانية .

(٢)

ويمكن تقسيم حركة الرجمة فى هذ الفترة إلى ثلاثة أطوار : فالطور الأول يبدأ من خلافة المنصور إلى أخر عهد الرشيد ، أى من عام ١٣٦هـ حتى عام ١٩٣هـ ، وقد مضى عهد السفاح دون عناية منه بالترجمة لقصر حكمه ، ولشغله الشاغل بتأسيس الدولة وتوطيد أركان الخلافة العباسية .

فلما ولى المنصور عى بترجمة العلوم عناية فائقة ، وخاصة الطب والهندسة والنجوم ، وبعث إلى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله أن يصله بما لديه من كتب الفلاسفة ؛ واستخار لها مهرة التراجمة وكلفهم بإحكام ترجمتها إلى العربية[١] ، وترجمت له الكتب

---

(١) ٤٨٩ مقدمة ابن خلدون و ٥٥ طبقات الأمم لصاعد الأندلسى .

من اليونانية والرومانية والهندية[1] [illegible] ترجم له شىء من الفلسفة والمنطق وسائر العلوم العقلية ، وإنما ترجمت بعد عصره ، وكان المنصور معنيا بعلم النجوم عناية فائقة ، وقرب إليه من المنجمين نوبخت المنجم الفارسى وأولاده ، وإبراهيم الفزارى ، كما قرب إليه جورجيس بن بختيشوع السريانى رئيس أطباء مدرسة جنديسابور ، إذ أعجب به واتخذه طبيباً له . . ومن أشهر المترجمين فى عهده ابن المقفع .

أما المهدى والهادى فقد شغلا بمحاربة البدع والزندقة ، فألهاهما ذلك عن تشجيع حركة الترجمة .

فلما ولى الرشيد الخلافة كانت الثقافة مزدهرة ، والعلوم منتشرة، والأذهان متفتحة لقيمة العلم والترجمة ، فأخذ يعمل على تقوية النهضة العلمية بكل ما فى قواه من جهد وعزيمة ، فقرب إليه العلماء، وكان يستصحب معه كلما سافر مائة عالم ، واتخذ أطباء وتراجمة له من السريانيين ، كآل بختيشوع وآل ماسويه ، وقد ترجمت فى عهده كتب كثيرة فى الطب والنجوم والكيمياء والنبات والحيوان والخيل والفلسفة والأخلاق ، وأنشأ الرشيد فى بغداد "دار الحكمة" ، التى تحتوى على نفائس الكتب من شتى اللغات . وقد أعيد فى عهده ترجمة الكتب التى سبقت ترجماتها فى عصر المنصور .

وفى هذا الدور الخطير ترجمت كتب كثيرة ، من أهمها : كليلة ودمنة من الفارسية ، وكتاب السند هند من الهندية ، وترجمت بعض كتب أرسططاليس فى المنطق وغيره ، وترجم كتاب المجسطى فى الفلك ، وأخذ المعتزلة يقرأون هذه الترجمات ، ويتخذون منها مادة

(١) ٢٤١ : ٤ المسعودى .

للجدل والمناظرة .

وكان البرامكة يشجعون الترجمة والمترجمين تشجيعيا كبيراً ، ويسخون سخاء نادراً على كل مجهود يتصل بالعلم والثقافة . فكان لتشجيعهم أبلغ الآثار فى ازدهار العلوم وتقدم المعارف ونمو حركة الترجمة وتطورها .

والطور الثانى لحركة الترجمة يبدأ حكم المأمون وينتهى بنهايته ، وكان المأمون عالماً متضلعا واسع الثقافة كثير الإطلاع ، وكان نهمه العقلى والعلمى لاحد له ، وقد أولى الترجمة عنايته الشديدة واهتمامه البعيد ، فأوفد الرسل إلى ملوك الروم فى استخراج علوم اليونانيين لنسخها بالخط العربى ، وبعث المترجمين لذلك ، وأنشأ فى بغداد مدرسة لتخريج التراجمة ،

وقد كان عصر المأمون أزهى عصور الترجمة ، لأنه كانت له مشاركة فى كل العلوم ، وكان يناصر الاعتزال ويحاول تأييد هذه النزعة بمنطق اليونان ، ولذلك كان ينفق بسعة شديدة على حركة الترجمة ، حتى أعطى وزن ما يترجم ذهباً ، وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب المترجمة ، ويرغبهم فى تعلمها ، ويخلو بالحكماء ويأنس بمحاضرتهم . .

وتبع الأمراء والوزراء الخليفة فى هذا المضمار ، فوفد على بغداد عدد جم من المترجمين من كل نحلة وطائفة .

وكان المأمون فى العرب كبريكليس فى اليونان ، وأغسطس فى الرومان ، فأتم ما بدأ به أباؤه ، واتخذ له بطانة من علماء اليونان والسريان والفرس والهنود ، وأمر ولاته بأن يأتوا إليه بالكتب التى تقع فى أيديهم ، وجعل من شروط الصلح بينه وبين ملك القسطنطينية أن

يرسل إليه بمجموعة من الكتب النادرة .

أما الطور الثالث : من أطوار حركة الترجمة فيبدأ بخلافة المعتصم وينتهى بقتل المتوكل عام ٢٤٧هـ

ففى عصر المعتصم فترت حركة الترجمة ، إذ لم يكن للخليفة تحصيل فى العلم أو رغبة فى المشاركة فيه .

وجاء بعده الواثق ، وكان ذكيا ، واسع الاطلاع ، كبير الثقافة ، يشجع العلم والعلماء ، فنشطت الترجمة فى عهده ، واستعادت بعض ما كان لها قبل من نشاط ، وإن كان أكثر ما ترجم فى عصره هو الأسمار والخرافات .

وفى عهد المتوكل على الله تمت ترجمة العلوم النافعة ، كالطب والنبات والنجوم ، لأنها كانت تروج عند الخليفة وتلقى تشجيعاً وعطفا ، وكان المتوكل آخر الخلفاء الذين أزروا حركة الترجمة ؛ وأعانوا على نقل علوم الأمم إلى العربية لغة القرآن الكريم .

(٣)

وقد نبغ فى هذا العصر طائفة من أشهر المترجمين :

فمن أشهر المترجمين عن ايونانية : الحجاج بن يوسف بن مطر ، وكان من جملة المترجمين للمأمون ، وقام بنقل كتاب إقليدس والمجسطى إلى العربية ، ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحرانى . .

ومنهم كذلك قسطا بن لوقا البعلبكى ، وهو من نصارى الشام ، وكان طبيباً حاذقاً ، ترجم وألف رسائل كثيرة فى الطب .

ومنهم موسى بن شاكر وكان من المترجمين للمأمون . وسار

على نهجه كذلك أولاده الثلاثة : محمد وأحمد والحسن .

ومنهم آل حنين ، وأولهم حنين بن إسحق العبادى شيخ المترجمين (١٦٤ـ٢٦٤هـ) وهو من نصارى الحيرة ، ثم ابنه إسحق المتوفى عام ٢٩٨هـ .

ومنهم حبيش الدمشقى وهو ابن أخت حنين بن إسحاق آل بختيشوع وهم من السريان وقد خدموا الخلفاء العباسيين من المنصور إلى المتوكل .

وقد ترجم هؤلاء وسواهم كثيراً من علوم اليونان وفلسفتهم وحكمتهم ومعارفهم فى المنطق والطب والهندسة والسياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق وغيرها ، ومن أشهر ما ترجموه : كتاب السياسة نقله حنين بن إسحاق ، وكتاب الأخلاق ترجمه إسحاق ، وكتب جالينوس وإقليدس . وقد نقل الحجاج بن مطر لإقليدس كتاب أصول الهندسة ، كما ترجموا أصول فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو .

ومن أشهر المترجمين عن الفارسية : عبد الله بن المقفع ، وآل نوبخت ، والحسن بن سهل ، وجبلة بن سالم ، وإسحق بن يزيد ، وهشام بن القاسم ، وسواهم .

وقد ترجموا عن الفارسية كتباً كثيرة ، من أشهرها : كتاب كليلة ودمنة الذى ترجمه ابن المقفع ، وكتاب خداينامه ، الذى ترجمه كذلك ابن المقفع ، وسماه كتاب سير ملوك الفرس ، وترجم كذلك الأدب الكبير ، والأدب الصغير ، والدرة اليتيمة ، وكتاب التاج فى سيرة أنوشروان .

ومن الكتب المترجمة عن الفارسية أيضاً : عهد أردشير ،

وتوقيعات كسرى ، وهزار أفسانه[1] وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة ، وكتاب أدب الحرب ، وسوى ذلك من نفائس المؤلفات .

ومن مشهورى المترجين هن الهندية : منكه الهندى الطبيب الذى عالج الرسيد ، وصالح بن بهلة الهندى الذى دخل بغداد فى عهد الرشيد أيضا ، ونال شهرة واسعة ، واشتدت مخالطته للأطباء . . .

وقد نقل هؤلاء المترجمون عن الهندية الكثير من كتب الطب والنجوم والفلك والرياضة والحساب والتاريخ والأسمار . ومما ترجم من كتب الأدب الهندى : كتاب سندباد الكبير ، والصغير ، وكتاب بيدبا فى الحكمة ، وكتاب السندهند ـ أى الدهر الداهر ـ فى الفلك وقد ترجمه من الهندية محمد بن إبراهيم الفزارى .

وقد كان هناك مترجمون عن العبرية والقبطية والكلدانية . ومما نقل عن الكلدانيين كتاب الفلاحة ، وكتاب أسرار الكواكب . . وسواهما من نفائس المؤلفات .

(٤)

وقد أهمل الأدب اليونانى فى الترجمة إهمالا كبيرا ، فقد عنى المترجمون عناية خاصة بفلسفة اليونان وحكمتهم ، فترجموا الكثير من أثارهم فيها إلى العربية ، من مثل : مؤلفات أرسطو وشروح علماء مدرسة الإسكندرية القديمة عليها ، وكتب أفلاطون ؛ وأهم كتب جالينوس فى الطب وعلى الجملة فقد ترجموا أهم ما ابتكره العقل اليونانى فى العلم والفلسفة .

ولكنهم لم ينقلوا إلينا شيئا يذكر من أداب اليونانيين . . فإذا قرأنا الكتب المترجمة نجدها تبحث فى كل فرع من فروع المعرفة

(١) ص ٢٠ المثل السائر .

الفنية، ولا نعثر على كتاب أدبى يونانى مشهور ترجم إلى اللغة العربية ، مع وفرة ماللبونان والرومان من آثار أدبية عالية فى القصص والتمثيل .

على أنهم قد ترجموا بعض مؤلفات فى علوم قريبة إلى الأدب كالتاريخ والأسمار ، فهذا ابن النديم ينقل في كتابه الفهرست أسماء كتب للروم فى هذين الفنين ترجمت إلى العربية[١]

وتساقط إلى العرب من الأسرى اليونانيين ، ومن الموالى الذين اختلطوا بهم من هذين العنصرين ، كثير من الحكم والأمثال ، مما تحفل به مصادر الأدب العربى ، كالبيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، وعيون الأخبار .

وترجم لهم بعض هذه الأمثال والحكم ، مما ينسب لفيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو . يروى ابن النديم أن على بن زين النصرانى نقل كتاباً فى الأدب والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب[٢] .

وهذه الأمثال والحكم على أى حال أبسط ألوان الأدب ، وهى شبيهة بما يعرف منهما عند العرب. وقد كان ولوع العرب بهما حافزاً على ترجمة بعض ما يؤثر منهما إلى العربية ،بعد تجريدها مما يختلط بهما من أسماء ، وما يلابسهما من مظاهر حياة اليونان الاجتماعية . إذ هما حينذاك قريبان من إلف العربى ، وليس فيهما ما ينفر منه من أساطير ، ولا يحتويان على أوزان شعرية لا تستسيغها العربية .

وكذلك تساقط إلى العرب بعض آراء فى البلاغة والنقد ، مما

---

(١) ٣٠٥ ، ٣٠٦ الفهرست .

(٢) ٣١٦ الفهرست .

يؤثر عن بعض اليونانيين : ولكن ذلك كله بعيد عما عرف من روائع الأدب اليونانى القديم ، كالأساطير والملاحم والتمثيليات ، وعما شهروا به من خطابة وكتابة وشعر غنائى ، فلم تترجم إلى العربية إلياذة هوميروس، ولا ما شابهها من الآثار. مما يدل على أن المترجمين صرفوا نظرهم عنها ، وأعرضوا إعراضاً عن نقلها إلى العربية .

ويمكننا أن نفسر إهمال الأدب اليونانى فى الترجمة إلى العربية بأن العرب كانوا أكثر الناس اعتزازاً بلغتهم ، واعتداداً بأنفسهم . مما جعلهم يحتقرون آداب اليونان ، ولا يقدرونها حق قدرها . وخاصة لبقاء اليونانيين على النصرانية وبعدهم عن حكم المسلمين ، بخلاف الفرس الذين أسلموا ، وخضعوا للحكم الإسلامى . . ولعل فى هذا ما يفسر لنا غض نقاد العرب المتأخرين من أدب اليونان وثقافتهم فى صناعة البيان . فهذا ابن الأثير يذكر في كتاب «المثل السائر» أن الشعر والخطابة فى الأدب العربى لم يتأثرا بثقافة اليونان البيانية ، وينفى أن يكون هو قد تأثر فى رسائله وكتابته بما ذكره علماء اليونان فى حصر للمعانى ، ويذكر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا فى الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه ورأى أن ما ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربى شيئا[1] .

وكان العرب يؤمنون بأنهم أوفر الأمم حظاً ، وأعلاهم كعباً ، وأكثرهم آثارا ، فى الأدب والشعر ؛ فهم فى غنى عن أن تترجم لهم آداب الأمم القديمة ، وخاصة أن عنايتهم كانت موجهة إلى نقل ما هم فى حاجة ماسة إليه من ثقافات ومعارف .

وإنما ترجموا ألواناً من الآداب الفارسية ، لأن الأدب الفارسى

---

(١) ص ٢٠ المثل السائر .

على العموم قريب من ذوق العربى كقرب ما بين الفرس والعرب من صلات وجوار ، والأدب الفارسى فى جملته ليس فيه من الأساطير والحديث عن الآلهة نظير ما تحفل به الآداب اليونانية الوثنية ، ولهذا كان بعض نقاد العرب المتأخرين يصورون إعجابهم بأدب الفرس ، فهذا ابن الأثير يقول فى كتاب «المثل السائر» : إنى وجدت العجم يفضلون العرب فى الإسهاب ، مع الاحتفاظ بالجودة ، فإن شاعرهم يذكر كتابا مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم ، كما فعل الفرس فى نظم الكتاب المعروف بشاهنامة ، وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه . وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها ، وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن العجم بالنسبة لهم كقطرة من بحر» .

ولم يجد المترجمون حائلا يحول بينهم وبين نقل هذه الآداب الفارسية إلى العربية ، بل كانوا يلقون الكثير من ألوان التشجيع من العناصر الفارسية ذات النفوذ والسلطان فى الدولة العباسية ، وخاصة الوزراء الذين ينتمون إلى أصول أعجمية ؛ وكان المترجمون يتقربون أحيانا إلى هؤلاء الوزراء بترجمة آداب أممهم ، التى تمجد تاريخهم القديم ، وقوميتهم الخالدة ، وملوكهم الأمجاد وأبطالهم المغاوير ، كما كانوا يتقربون إلى الخلفاء بترجمة الطرائف الأدبية ، والملح الممتعة، لتكون مادة للمفاكهة والسمر .

وفى هذا جميعه ما يدلنا دلالة واضحة على أنه لم يكن هناك تأثير للأدب اليونانى . . أما التأثير الأكبر ؛ فقد كان فقد كان لعلومهم وفلسفتهم .

وبذلك نستبين أن الآداب الفارسية كانت أكثر تأثيراً فى الأدب العربى من الآداب اليونانية .

- ٥ -

وكان لبيت الحكمة أثره ودوره فى الحضارة ويعد من معالم الحضارة الإسلامية إنشاء بيت الحكمة ببغداد فى عهد هارون الرشيد وهو أهم مجمع علمى شيد منذ إنشاء جامعة الاسكندرية فى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد .. وفى بيت الحكمة ترجمت أمهات الكتب من اللغات المختلفة وفى موضوعات متباينة إلى اللغة العربية ، وجلس العلماء أمام هذه الكتب جلسات فكرية رائعة ذات مراحل متعددة ففى المرحلة الأولى اكملوا ما كان بها من نقص ، وفى المرحلة الثانية شرحوها ثم علقوا عليها ، وفى المرحلة الثالثة تدارسوها وقدموا أفكارهم للطلاب ، ثم وصلوا بعد ذلك إلى قمة المراحل عندما ألفوا وابتكروا فى هذه الموضوعات فوضعوا فى الطب والرياضة والموسيقى والزراعة والبيطرة والأدوية وغيرها مؤلفات قيمة كانت عماد الفكر فى تلك العصور وهى التى نقلت إلى أوربا فوضعت أساس عصر النهضة .

- ٦ -

وتقول الدكتورة : المستشرقة الألمانية هونكه (١)

حوالى عام ٥٩هـ /٦٧٨م أيام العصر الأموى بدأت حركة الترجمة ، وقد عاصرها في أوربا (بيين فون هريستال) وهو والد (كارل مارتل) الذى قفز من وظيفة مدير لقصر الملك إلى حاكم حقيقى

(١) ص١٠ مجلة المكتبة ـ العراقية ـ عدد المحرم ١٣٨٥هـ .

لفرنسا .

فهذه الخطوة بدأت فى دمشق وأتمها الخلفاء العباسيون فى بغداد خدمة للإسلام والمسلمين . فقد أمر المنصور كما جاء فى كتاب «عقد اللآلئ» فيما يتعلق بالكتاب الهندى (سيد هنتا) أن يترجم إلى العربية ويؤلف كتاب على نمطه فى العربية ليتعلم العرب منه حركات النجوم والواقع أن ما طلب حكام العرب تنفيذه اقتناعا منهم بفائدته قد نفذ كاملا غير منقوص .

فعملية الترجمة كانت تؤدى بعناية ودقة وحماس لا يقل عن هذا الإهتمام الذى وجه إلى جميع الكتب التى جمعت من مختلف مصادرها ، فقد استدعى هرون الرشيد مختلف العلماء الذين يجيدون اللغات وكون منهم هيئة علمية تحت إشراف يحيى بن ماسويه مهمتها تقدير التعويضات التي يجب أن تدفعها الشعوب المهزومة وهذه التعويضات يجب أن تكون كتبا . ثم جاء المأمون وكون مجمعا علميا حقيقيا لأعمال الترجمة . وقد نسج على منواله الذين جاءوا بعده وحاولوا منافسته ، فأبناء موسى بن شاكر الفلكى الثلاثة أنفقوا كثيرا من الأموال فى سبيل جمع الكتب وترجمتها ، فكانوا بذلك مثالا حيا للآخرين مثل الطبيب البلعبكى (قسطا بن لوقا) .

ومن الأمثلة الأخرى الشهيرة للنشاط العظيم الذى بذل لإحياء التراث القديم هو ذلك الذى أداه حنين بن إسحق .

فقد اكتسب شهرة أوسع عن طريق مهارته فى الترجمة حيث امتازت ترجمة حنين بحسن الأسلوب ودقة الترجمة فترجمته لم تكن حرفية ـ أى كان يكتفى بإحلال كلمة أو جملة مكان أخرى توضح فى الترجمة المعنى ـ بل كان يصبه فى قالب عربى سليم . أما إعجاب

محمد بن موسى بحنين فقد فاق الوصف، فقد أخذه إلى داره وعين له مرتبا عاليا لترجمة الكتب اليونانية التى جمعها هو وأخواه إلى العربية .

لكن النشاط الجم لهذا الطبيب والمترجم العربى جعله لا يقصر همته على الطب فقط ، فحنين لم يقتصر على الترجمة لجالينوس وبقراط واوريبازيوس ، وديو سقويدس وبول اجينا ، بل عرج على أرسطو وأفلاطون والترجمة اليونانية للعهد القديم ؛ الترجمة السبعينية التى نقلها إلى العربية . إن ابن اسحق قد كرس حياته للمؤلفات الفلسفية والرياضية وما بعد الطبيعة أى الميتافيزيقا . وحنين بن اسحق على نقيض المترجمين اللاتين المتأخرين ، فعالمنا العربى كان ملما بمختلف أنواع العلوم . وقد اشتهر حنين بدقته حتى إنه كان كما يذكر هو نفسه ، لا يقدم على الترجمة إلا بعد الحصول على ثلاث مخطوطات على الأقل من الكتاب المراد ترجمته فيقابل بينها ويقوم نصها ويصححه .

وفى تلك الفترة عينه المتوكل طبيبه الخاص ومديرا لمدرسة الترجمة الجديدة التى أنشأها الخليفة .

وهكذا نجد العلماء العرب يحفظون للعالم عن طريق ترجماتهم الكثير من الكتب من الضياع ، وهى مؤلفات كان العالم يجهلها جهلا تاما لولا أن جاءته عن طريق الترجمة العربية مثل كتب التشريح لجالينوس وكتب القوى المحركة والرياضيات للمؤلفين (هيرون) و (فيلون) و (مينيلاوس) ثم بصريات بطليموس ، وأخرى حول الساعة المائية ، والأجسام الطافية لأرشميدس .

***

الفصل الخامس

فى القرن التاسع الميلادى

(١)

شهد القرن التاسع الميلادى (٨٠٠ ـ ٩٠٠م : ١١ من ذى الحجة ١٨٤ ـ ٦ من المحرم ٢٨٨هـ) نهضة حضارية جديدة ، رفعت لواءها الخلافة العباسية ، التى كان لها النفوذ الروحى والسياسى فى العالم الإسلامى .

وشاهدت بغداد عاصمة الخلافة فى هذا القرن عظمة عرش : الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ : ٧٨٦ ـ ٨٠٩م) ، والمأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ : ٨١٣ ـ ٨٣٣م) . والمعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ : ٨٣٣ ـ ٨٤٢م) ، والمتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ : ٨٤٧ ـ ٨٦١م) ، والمعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ : ٨٩٢ ـ ٩٠٢م) ، كما عاشت في دولة الأمين (١٩٣ ـ ١٩٨ هـ : ٨٠٩ ـ ٨١٣م) ، والواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ : ٨٤٢ ـ ٨٤٧م) ، والمنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨هـ : ٨٦١ ـ ٨٦٢م) ، والمستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ : ٨٦٢ ـ ٨٦٦م) ، والمعتز (٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ: ٨٦٦ ـ ٨٦٩م) ، والمهتدى (٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ : ٨٦٩ ـ ٨٧٠م) ، والمعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ : ٧٨٠ ـ ٨٩٢م) . والمعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ : ٨٩٢ ـ ٩٠٢م)

وفى هذا القرن كان يحكم الأمبراطورية البيزنطية الأباطرة : نقفور الأول (٨٠٢ ـ ٨١١) ، وميشيل الأول (٨١١ ـ ٨١٣م) ، وليو الخامس (٨١٣ ـ ٨٢٠م) ، وميشيل الثانى (٨٢٠ ـ ٨٢٩م) ، وتيوفيل (٨٢٩ ـ ٨٤٢م) ، وميشيل الثالث (٨٤٢ ـ ٨٦٧م) ، وباسل الأول (٨٦٧ ـ ٨٨٦م) وليو السادس (٨٨٦ ـ ٩١٢م) ؛ وكان هؤلاء الأباطرة يعدون أنفسهم حماة مجد الدولة الرومانية الكبرى ، والممثلين

الحقيقيين لتراث المسيحية ، وإن نازعهم الإمبراطور شرلمان فى غرب أوربا هذا الشرف ، وخاصة بعد أن توج عام ٨٠٠ امبراطورا على الامبراطورية الرومانية المقدسة .

(٢)

فى هذه الفترة الحافلة استطاع العباسيون أن يكتبوا بكل إيمان وثقة أنصع الصفحات فى التاريخ السياسى والفكرى والأدبى للعرب والمسلمين ، وقد امتد نفوذ العباسيين فيه من شواطئ المحيط الأطلسى إلى حدود الهند والصين ، وارتفعت راياتهم فى الآفاق تأوى إليها مواكب الحضارة والعلوم والآداب والفنون ، وتقوم المدارس ، وتنشأ الجامعات وتترجم الثقافات الأجنبية ، ويؤدى أعلام الفكر والثقافة رسالتهم من أجل خير الإنسانية ، وتعيش شتى العناصر والأجناس والألوان فى ظلال الإسلام فى محبة وسلام وإخاء .

هذا على الرغم من حكومات مستقلة فى بعض الأقطار الإسلامية ، كالدولة الطولونية التى قامت فى مصر عام ٢٥٤هـ : ٨٦٨م وسواها . ومن نفوذ العناصر الفارسية فى نصفه الأول ، والعنصر التركى فى نفصه الثانى . . ويمتاز هذا القرن بحرية الفكر ، وبنفوذ المعتزلة وسلطانهم فيه ، حتى مال المأمون إلى جانبهم ، وآمن بمبادئهم وأفكارهم الدينية ، فأصدر عام٢١٢هـ/ ٨٢٧م منشورا يقرر فيه رسميا القول بخلق القرآن ، وظل النفوذ الفكرى لهم فى دولة الخلافة ، إلى أن تسنم المتوكل العرش فأصدر عام٢٣٤هـ / ٨٤٨م قراراً اعتبر فيه القول بخلق القرآن خروجا على الدولة .

ويمتاز كذلك بازدهار النهضة العلمية والأدبية ، وبظهور كثير من نوابغ الفكر العربى ، وبتجمع الثقافات وتمثلها فى الثقافة العربية ،

وباتساع حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، مما أثرى الأدب العربى ثراءا كبيرا ؛ وكانت الترجمة من الفهلوية والهندية واليونانية والسريانية مستمرة ، وأخذ تراث الثقافة الهيلينية يؤثر فى تفكير فلاسفة الإسلام ، كما كان يؤثر فى التفكير البيزنطى أيضا . والتقى المسلمون بهذه الثقافة فى الولايات البيزنطية والفارسية وفى البلاد التى كانت خاضعة للرومان كمصر والشام ، وبلغ التبادل الثقافى الإسلامى الأوربى أوجه فى عهد الخليفة العباسى المأمون ، حيث كتب إلى امبراطور الروم البيزنطى «يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم . فأجاب إلى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون بذلك جماعة منهم : الحجاج بن مطر وابن البطريق وسهل بن هرون وصاحب بيت الحكمة فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل . وقد قيل إن حنا بن ماسويه (وهو من كبار المترجمين المسلمين من اليونانية) ممن نفذ إلى بلاد الروم» .

ولم يكتف الخلفاء المسلمون باستحضار الكتب من أوربا ، وإنما حرصوا أيضا على استدعاء كبار العلماء من شتى التخصصات . ومن ذلك أن الخليفة العباسى المأمون بعث رسالة شخصية إلى إمبراطور الروم ثيوفيل (٨٢٩ ـ ٨٤٢م) يطلب فيها السماح لعالم الرياضة البيزنطى ليو بزيارة بغداد ولو لوقت محدود ، وقال إنه يعتبر ذلك عملا وديا ، ويعرض فى مقابل ذلك الصلح الدائم وألفى قطعة ذهبية. إلا أن الإمبراطور رفض العرض ومنح ليو وظيفة فى إحدى الكنائس ومرتبا دائما .

(٣)

وأدى التبادل الثقافى بين قادة المسلمين والأوروبيين إلى ظهور كثير من أوجه الشبه بينهما ، وذلك على نحو ما قام بين الخليفة المأمون وإمبراطور الروم البيزنطى ثيوفيل ، الذى ظل معاصرا لهذا الخليفة العباسى أربع سنوات . فالإثنان اهتما بالمسائل الدينية ، وأثارا المعارضة بالتجديد فى الدين ، وكلاهما اهتم بالشعر . وازدهر فى عهد ثيوفيل ـ كما ازدهر في عهد المأمون ـ العلوم والبناء ، وجعل هذا الإمبراطور نفسه ـ كما فعل المأمون ـ حلقة من العلماء الذين كان منهم ليو الرياضى ويوحنا النحوى . ولم يكن القصر الصيفى الذى بناه إمبراطور الروم سوى محاكاة لقصر من قصور الخليفة المأمون بسبب تعلقه بالثقافة والفن العربيين .

وكان يحلو لإمبراطور الروم البيزنطى ثيوفيل أيضا أن يقلد الخليفة العباسى هارون الرشيد ، ويعتبره المثل الأعلى فى الحكام . فكان يطوف مثله أحياء العاصمة ، متصلا بالفقراء ، مستمعا إلى شكاوى الضعفاء متفقدا أحوال الرعية[1] .

وكان الإمبراطور توفيل أعظم شخصية بيزنطية وكانت القسطنطينية فى عهده تنافس بغداد فى الأبهة وفى حلبة الثقافة ، وكانت مدارسها وجامعاتها قبلة أنظار العلماء .

كما أثرت الحضارة العربية الشرقية الإسلامية فى الإمبراطورية البيزنطية أيضاً ، فكان البلاط البيزنطى يحاكى بلاط بغداد فى الترف والبهاء الشرقى الأصيل ، وكان عصر الأسرة المقدونية عصر بعث حقيقى لهذه الإمبراطورية ، وفى عصر الأسرة العمورية التى تبدأ من

(١) د العدوى ـ مجلة الهداية ـ البحرين ـ ١٤٢٣ هـ .

عام ٨٢٠ زاد نصيب بيزنطة من الحضارة والقوة ، وكان للبطريرك فوتيوس أثر فى نمو النهضة الثقافية البيزنطية ، وأحيا برادس أعظم رجال الدولة والمتصرف الحقيقى فى شئونها جامعة القسطنطينية القديمة، وعين لها أساتذة فى الهندسة والفلك وفقه اللغة .

وقد كان التبادل الاقتصادى مستمرا بين الدولتين ، فكانت الطرق التجارية بين بغداد وآسيا الصغرى مفتوحة ، وكانت صادرات بغداد وبلاد الخلافة فى آسيا الوسطى التى تمر قوافلها ببغداد تصلان إلى القسطنطينية رأسا .

(٤)

وقد تبودلت السفارات بين الدولتين خلال القرن التاسع ، وكان موضوع هذه السفارات دائما هو إجراء مفاوضات حول صلح أو هدنة أو فداء الأسرى ، وكانت هذه السفارات الإسلامية أو البيزنطية تخرج عادة على رأس قوافل محملة بالهدايا الثمينة والمجوهرات لولى البلاد وبعض كبار رجال دولته ، وإذا وصل السفير بغداد أو القسطنطينية لقن آداب البروتوكول وحدد له موعد للتشرف بالمقابلة ، ويوضع له برنامج خاص لزيارة العاصمة والوقوف على مظاهر العظمة والأبهة فى الدولة، وربما أقيم له عرض عسكرى قد يصل من الفخامة إلى حد كبير ، وقد تكرر ذلك كثيراً في هذا القرن :

ففى عام ٢٣١هـ : ٨٤٥م فى عهد الواثق وصل إلى بغداد سفير موفد من قبل إمبراطورية بيزنطة للمفاوضة فى فداء الأسرى . وبعد مفاوضات طويلة فى بغداد بعث الخليفة سفيره أحمد بن أبى قحطبة إلى البلاط البيزنطى ووكل إليه إتمام الاتفاق على الفداء واستقبل

السفيران فى بغداد والقسطنطينية استقبالا رائعاً ، وكللت سفارتهما بالتوفيق .

وفى عام ٢٤١ : ٨٥٦هـ بعث المتوكل سفيره نصر بن الأزهر بن فرج إلى القسطنطينية للمفاوضة حول فداء الأسرى . ونجحت هذه المفاوضات وتم الفداء فعلا يوم الأحد ١٢ شوال ٢٤١هـ ـ ٢٣ فبراير ٨٥٦.

وفى عام ٢٤٦هـ : ٨٦٠م بعث المتوكل أيضا سفيره نصر بن الأزهر بن فرج إلى القسطنطينية إجابة لطلب الإمبراطور ميشيل الثالث للمفاوضة حول فداء الأسرى ، وحين وصل السفير إلى البلاط كان متمنطقا سيفا وخنجرا ومتشحا بالملابس السوداء ، وعلى رأسه القلنسوة اللباس الرسمى للعباسيين ، فأبى عم الإمراطور هو وزيره ببروناس أن يسمح للسفير بالدخول إلى قاعة الإستقبال على هذه الهيئة واعترض السفير وهم بالعودة ، فلاطفه رجال البلاط الإمبراطورى وأذنوا له بالمقابلة ، فدخل على الإمبراطور ، وقدم له الهدية التى بعث الخليفة بها معه ، وحضر المقابلة ثلاثة مترجمين حذرهم السفير من أن يزيدوا على ما يقول شيئاً ، ولما تمت المفاوضات واتفق الطرفان على قواعد تبادل الأسرى أقسم كل منهما على الوفاء بتعهده واقسم (ببروناس) أيضا نيابة عن الإمبراطور وبإذن منه .

وقد أحسن الإمبراطور معاملة السفير ، وأفرد له منزلا غير بعيد من قصره ، وظل السفير أكثر من أربعة أشهر فى العاصمة ، وتم الفداء فعلا على أكثر من ألفى مسلم فيهم عشرون امرأة وعشرة أطفال لدى الروم وأكثر من ألف أسير من الروم عند العرب ، والألف الأخرى جعلت فدية لأحد بطارقة الإمبراطور وكان قد وقع فى أسر

المسلمين فى حصن لؤلؤة وجعلت فديته ألف مسلم .

ولم تقتصر السفارات السياسية فى هذا القرن على ذلك فحسب بل كانت السفارات من بغداد وعواصم كثير من الدول مستمرة ، ومن ذلك مثلا أن شارلمان إمبراطور الدولة الرومانية فى غرب أوربا بعث من ايكس لاسايبل عاصمة ملكه سفيرا له اسمه اسحاق إلى بلاط الخليفة الرشيد فى بغداد ، فأكرم الرشيد وفادة السفير ورحب بصداقة شارلمان ، وأوفد إليه سفراءه بهدايا فخمة : خيمة عربية وساعة مائية وأثواب حريرية وتخت من الذهب ، وفيل ، وأمر الرشيد بفتح قبر المسيح فى بيت المقدس الذى يتولى حمايته ، وتبادل الرشيد وشرلمان السفراء والهدايا فيما بين عامى ٧٩٧ و ٨٠٦م ، ويقال إن الرشيد منح شارلمان حسن رعاية المسيحيين فى الإمبراطورية الإسلامية وصحب هذه السفارات عقد محالفة بين الرشيد وشارلمان ، كان لها أغراض بعيدة هى زغبة شارلمان فى القضاء على الإمبراطورية البيزنطية بأيدى الرشيد، ورغبة فى الرشيد القضاء على الخلافة الأموية بالأندلس بأيدى شارلمان .

(٥)

أما الصلات الثقافية ، فقد ظلت متبادلة طول هذا القرن ، وكانت عاملا من عوامل التفاهم الفكرى والسياسى بين المسلمين والبيزنطيين .

ففى عهد الرشيد استولى المسلمون على كثير من المخطوطات اليونانية النفيسة إبان إغارتهم على الدولة البيزنطية ومدنها مثل أنقرة وعمورية ، ووصلت هذه الكنوز إلى بغداد ، وترجمت إلى العربية ، وقام بهذه الترجمة كثيرون من مهرة التراجمة من بينهم يحيى بن

ماسويه ، ومن ذلك نعرف أن إغارات الرشيد على آسيا الصغرى لم تكن تهدف إلى النهب والغنائم ، وإنما كان يقصد من ورائها كذلك الاستيلاء على كنوز البيزنطيين .

وبعث المأمون إلى الإمبراطور ليو الخامس يطلب منه السماح للسفارات الإسلامية بالحصول على الكتب اليونانية القديمة فى الفلسفة والهندسة والطب ، وكان المأمون قد أوفد جماعة من أشهر علماء عصره فى بعثه علمية إلى بيزنطة للحصول على هذه المخطوطات ، وكان فيهم الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وصاحب بيت الحكمة، واختارت هذه البعثة الكثير من نفائس المخطوطات وعادت بها إلى بغداد ، وهناك كان قسطا بن لوفا يشرف على ترجمة هذه الكنوز الإغريقية الثمينة ، وكان غرض المأمون استخلاص أبدع ما فى الفكر الإغريقى من فلسفات وثقافات ومزجه بالثقافة العربية الإسلامية ، وأسس المأمون فى بغداد عام ٢١٤هـ ، بيت الحكمة للأشراف على حركة ترجمة الكتب اليونانية ، وكان يضم مكتبة ومجمعا علميا للترجمة ، وكان هذا خطوة جليلة لتغذية العلوم الإسلامية بشئ من معارف اليونان .

وكان المأمون عالما متضلعاً واسع الثقافة كثير الإطلاع ، وقد أولى ترجمة الثقافات الأجنبية إلى العربية عناية خاصة ، إذ كان يناصر الاعتزال ويحاول تأييد هذه النزعة بمنطق اليونان ، وكان ينفق بسخاء على حركة الترجمة حتى أعطى وزن ما يترجم ذهبا ، وكان يحرض الناس على قراءة هذه التراجم ويرغبهم فى نقلها .

كما كان يخلو إلى الحكماء ويأنس بمحاضراتهم ، وقد اتخذ بطانة له من علماء اليونان والسريان والفرس والهنود وأمر ولاته أن

يبعثوا له بالكتب التى تقع فى أيديهم وجعل من شروط الصلح بينه وبين الإمبراطورية أن يرسل إليه مجموعة من الكتب النادرة ، وكان من علماء بيزنطة المشهورين فى الرياضيات فى عصر المأمون ليو المهندس الفلكى الذى ذاع صيته فى بغداد عن طريق تلاميذه ، فأرسل المأمون إليه يستدعيه إلى بلاطه وأغراه بإجزال العطاء له ، ولكن تيوفيل لم يأذن له بالسفر ، ومنحه وظيفة معلم فى إحدى الكنائس فى القسطنطينية وقرر له راتبا شهريا ، ولكن حرص المأمون على الإفادة من هذا العالم البيزنطى جعله يبعث برسالة شخصية إلى الإمبراطور تيوفيل يطلب فيها السماح بإيفاد ليو إلى بغداد فى رحلة قصيرة ، وذكر فى رسالته أنه يعد قبول الإمبراطور لهذا الطلب عملا وديا ، وأنه يعرض لذلك ألف قطعة من الذهب وعقد صلح دائم غير أن تيوفيل رفض طلب المأمون .

وقد أرسل الخليفة الواثق العالم العربى المشهور محمد بن موسى ليستأذن من الإمراطور ميشيل الثالث لزيارة الكهف الذى حفظت فيه رفات أهل الكهف السبعة الذين استشهدوا فى اضطهادات ديسيوس وورد ذكرهم فى القرآن الكريم ، وأرسل الإمبراطور الرومى دليلا ليصاحب العالم العربى ، فى هذه الرحلة العلمية وقد دخل محمد الكهف ورأى الرفات . وأرسل الواثق أيضا حملة كبيرة رأسها المترجم سلام ، الذى كان يعرف ثلاثين لغة ، إلى آسيا الصغرى ، ليكتشف السور الذى بناه الاسكندر سدا بين يأجوج ومأجوج كما ورد فى القرآن الكريم ، ودامت الحملة ٢٨ شهرا ولما عاد أعضاء البعثة كافأهم الخليفة ، وقدموا له تقريرا وافيا عن الحملة . ولم تقطع العلاقات الثقافية بين بغداد وبيزنطة طول هذا القرن .

وقد أسهم الوزراء والأمراء ورجالات الخلافة الإسلامية فى هذا القرن فى تشجيع حركة ترجمة الثقافة الإغريقية إلى العربية ، وممن أبلى فى ذلك بلاء حسنا أمراء البيت العباسى وأسرة البرامكة ، ووزراء الخلافة ، وموسى بن شاكر وأبناؤه محمد وأحمد والحسن الذين أحتضنوا حنين بن إسحاق العبادى شيخ المترجمين (١٦٤ ـ ٢٦٤هـ) وابنه إسحاق (المتوفى عام ٢٩٨هـ) ، وأوفدوا حنينا على نفقتهم إلى أسيا الصغرى ليجيد اللغة اليونانية وليحصل على نفائس من المخطوطات القديمة وكانوا يجزلون العطاء لحنين وربما بلغ مرتبه خمسة آلاف دينار فى الشهر أو ما يعادل ٢٥٠٠ جنيها مصريا .

(٦)

وقد الف مسلم بن أبى مسلم الجرمى وهو أحد الأسرى المسلمين الذين أطلق سراحهم فى فداء ٢٣١ هـ : ٨٤٥م كتبا عن أباطرة بيزنطة وكبار رجالاتها ، وعن أقاليم الإمبراطورية ومسالكها ، ومناخها ؛ وما يجاورها من الدول .

ومن الرحالة المسلمين الذين وصفوا القسطنطينية هارون بن يحيى أحد الأسرى فى عهد الإمبراطور باسل الأول ، وقد وصف هارون الطريق البحرى الذى حمل فيه إلى القسطنطينية ، كما وصف هذه العاصمة ومشاهداته فيها والقصر الإمبراطورى وموكب الأمبراطور إلى الكنيسة وأديرة القسطنطينية وسوى ذلك من مذكراته ومشاهده الثمينة .

(٧)

وكانت الأسرى البيزنطيون فى بغداد وأسرى المسلمين فى القسطنطينية ، وهم كثيرا ما يبلغون عشرات الألوف ، عاملا من

عوامل التقارب الفكرى والسياسى والاجتماعى بين الدولتين ، وكانت حوادث الحدود لا تنتهى بينهما ، وكثيرا ما توغلت جيوش الخلافة فى آسيا الصغرى وكثيرا ما أغارت جيوش الأمبراطورية على مدن الشام والجزيرة ، وكانت هذه الحوادث سببا آخر من أسباب زيادة التبادل الفكرى ، إذا كان المنتصرون والمنهزمون يتبادلون الأفكار الجديدة والعادات والأخلاق واللغات والآداب ، وبهذه العقلية الجديدة كان يفد السفراء على بلاط إمبراطور بيزنطة ، وبهذا كانت تكتب رسائل الخلفاء التى يحملها السفراء ، وبها كتب (نيقولاميستيكوس) بطريق القسطنطينية فى رسالة إلى حاكم جزيرة كريت المسلم يعبر عن إيمانه بالسلام بين الدولتين : «إن أعظم قوى العالم أجمع قوة العرب وقوة الروم تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر فى السماء ، ولهذا وحده يجب أن نعيش أخوة على الرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين» .

ومن الأحداث التى كانت تقع على حدود الدولتين بين الحين والحين غزوة الرشيد فى صيف عام ٨٠٦م - ١٩٠هـ للممتلكات الإمبراطورية البيزنطية فى آسيا الصغرى ، فقد قاد الرشيد بنفسه جيشا يبلغ عدده ١٣٥ ألف جندى عدا المتطوعين واستولى على عدة معاقل منها هرقلة وطوانة شمال قلعة اللؤلؤة واضطر الإمبراطور نقفور إلى طلب الصلح ودفع ٥٠ ألف دينار مقابل تخلى الرشيد عما بيده من الأراضى البيزنطية ، ويوضح لنا هذا أن الخلافة العباسية لم تكن قد رسمت لنفسها سياسة هدفها تقويض دعائم الدولة البيزنطية .

ثم كانت الثورة التى أعلنها توماس الصقلى على الإمبراطور ميشيل الثانى فى آسيا الصغرى ، وشد المأمون أزر هذا الثائر ضد

الإمبراطورية فعقد حلفا معه تعهد فيه بأن يمده بجيش قوى لمهاجمة القسطنطينية ثم اتخذ هذا الحلف صبغة شرعية عندما توج بطريق أنطاكية التابع للخلافة الإسلامية توماس آمبراطوراً . ولكن ثورة توماس فشلت وهزمت جيوشه عام ٨٢٢م وقبض على توماس فى منتصف يونيو ٨٢٣ وحكم عليه بالإعدام . ولكن المأمون لم يسكت فغزا بجيشه فى ٣٠ يوليو مدنا فى آسيا الصغرى ، واستولى على قرة وماجدة وحصن سندس ، وكان سبب ذلك اعتداءات الآمبوراطورية على الحدود ، وفى عام ٢١٦هـ دخل المأمون أيضا هرقلة ومدنا أخرى فى آسيا الصغرى . وفى عام ٢١٧ هـ حاصر حصن لؤلؤة . وقد مات المأمون عام ٢١٨هـ داخل الحدود البيزنطية .

ولم تسكت بيزنطة على تأييد بغداد لثورة توماس فقد أيدت هى كذلك ثورة بابك التى اشتعلت نارها بعنف فى أذربيجان وأرمينية وأعد الأمبراطور البيزنطى تيوفيل جيشا من مائة ألف هاجم به حصن زبطرة قرب الحدود عام ٢٢٣هـ ٨٣٧م وفى هذه السنة تمكن المعتصم من القضاء على هذه الثورة ، ثم اعد ثلاثة جيوش قاد بنفسه إحداها وهاجم بها الإمبراطورية البيزنطية فى آسيا الصغرى واستولى على أنقرة وعمورية مهد الأسرة العمورية الحاكمة وقد دمر هذه المدينة عام ٢٢٣هـ : ٨٣٨ أخذا بثأر بطرة .

ولجأ تيوفيل إلى عبد الرحمن الثانى ملك الأندلس (٨٢٢ ـ ٨٥٢م) يستعين به ليهاجم الخلافة العباسية فى المغرب العربى فأرسل سفارة وصلت قرطبة فى نوفبر ٨٣٩م: ٢٢٥هـ لعقد محالفة بين الملكين، ومنى تيوفيل ملك الأندلس بملك أجداده فى المشرق فرد عبد الرحمن ردا حسنا وبعث إلى الإمبراطور بهدايا ثمينة مع سفيره يحيى

الغزال .

وفى عام ٨٦٣م تمكن الأمبراطور ميشيل الثاث من الأخذ بثأر عمورية بإبادته جيش ملطية العظيم الذى كان يقوده عمر الأقطع وقد تركت هزيمة الجيش العربى أثرها فى الملاحم اعربية وبقى هذا الأثر امتدادا لما جاء فى الرواية العربية التركية المسماة «السيد المسلم البطال» وفى إحدى قصص ألف ليلة وليلة ، وقد استشهد البطال عام ١٢٣هـ/ ٧٤٠م فى معركة أكرونيون باسيا الصغرى فى حصار القسطنطينية وكتبت قصة بطولته بعد ذلك بكثير ترددت فى القصة صور من الأعمال الحربية بين الدولتين فى القرن التاسع وكان صدى الأحداث العسكرية بين الدولتين كثيرا ما يتردد فى الأغانى الشعبية التى تدور حول أحداث الحدود وفى شعر شعراء العرب فى القرن التاسع كقصيدة أبى تمام المشهورة فى فتح عمورية ومطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب

فى حدة الحد بين الجد واللعب[1]

(١) راجع فى هذا الموضوع ما يلى المراجع :

- العرب والروم - فازليف - دار الفكر .
- الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية - دكتور إبراهيم العدوى - الطبرى .
- ابن الأثير د .
- إبراهيم العدوى - مجلة الهداية - البحرين - عدد شوال ١٤٢٩م
- الأدب العربى فى ظلال الأمويين والعباسيين - للمؤلف .
- الحياة الأدبية فى العصر العباسى - للمؤلف .
- محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى بك .
- الفتوحات الإسلامية لدحلان .
- مواكب الحرية فى مصر الإسلامية - للمؤلف .
- الوطن الإسلامى - مخطوط - للمؤلف .

الفصل السادس

علاقات إسلامية غربية

علاقات إسلامية غربية

ـ ١ ـ

قامت علاقات إسلامية وثيقة مع ممالك غرب أوربا ، التى اشتملت على الإمبراطورية الغربية الألمانية ، وكانت تشمل ألمانيا الحالية وأجزاء من بلجيكا وهولندا والنمسا والمجر ، وهى التى صار اسمها الرسمى الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، واشتهر أعظم حكامها وهو الإمبراطور هنرى الرابع (١٠٥٦ ـ ١١٠٦) بعلاقاته الطيبة مع المسلمين فى بلاد الأندلس . وقامت فى فرنسا مملكة قوية كذلك تولى عرشها ملوك من أسرة هيوكابيه ، التى اشتهر منها فى علاقاته مع المسلمين الملك فيليب الأول (١٠٦٠ ـ ١١٠٨م) . وفى انجلترا أسس النورمانديون مملكة قوية تولى عرشها الملك وليم الثانى صاحب العلاقات الوثيقة مع المسلمين .

واهتمت هذه الدول الأوربية الغربية بإرسال بعثات علمية إلى ديار المسلمين بالأندلس لدراسة العلوم والفنون والصناعات فى معاهدها الكبرى ، نتيجة لذيوع شهرة الأندلس وحضارتها الزاهرة فى انجلترا وفرنسا وهولندا . وكان الملك فيليب البافارى من أوائل حكام غرب أوربا الذين عمدوا إلى الإفادة من العلاقات الإسلامية الأوربية . إذ بعث إلى الخليفة الأموى بالأندلس ، وهو هشام الأول يسأله السماح له بإيفاد هيئة تشرف على حالة بلاد الأندلس ودراسة أنظمتها وشرائعها وثقافة مختلف الأوساط فيها ، ليتمكن من اقتباس المثمر المفيد من ذلك لبلاده . ووافق الخليفة على طلبه ، وبعث هذا الملك

الجرمانى وفدا برئاسة وزيره الأول (الذى اشتهر باسم وليم الأمين) لأنه كان أمينا فى نقل ما رآه من حضارة الأندلس وعظمتها إلى الملك ، وحثه على الاستمرار فى إنفاذ البعثات العلمية لاقتباس معالم الحضارة الإسلامية .

ـ ٢ ـ

توالت البعثات على الأندلس ، فأرسل ملك انجلترا ، جورج الثانى ، ابنة أخيه الأميرة «دوبانت» على رأس بعثة من ثمانى عشرة فتاة من بنات الأمراء والأعيان إلى أشبيلية ببلاد الأندلس ، برياسة النبيل «سفليك» ، الذى كان يحمل كتابا من الملك إلى الخليفة هشام الثالث جاء فيه :

«من جورج الثانى ملك إنجلترا والسويد والنرويج إلى الخليفة ملك المسلمين فى مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقدام : بعد التعظيم والتوقير ، فقد سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم والصناعات فى بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة فى اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم فى بلادنا التى يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة . وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة «دوبانت» على رأس بعثة من أشراف الإنجليز لتتشرف بلثم أهداب العرش ، والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة ، وحدب من لدن اللوائى سيتوفرن على تعليمهن . وقد بعثت مع الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص ـ من خادمكم المطيع : جورج» .

وكانت هدية الملك جورج عبارة عن شمعدان من الذهب

الخالص ، طول الواحد ثلاثة أذرع ، مع أوان ذهبية أخرى للطعام ، عددها اثنان وعشرون قطعة ، نقشت بأبدع وأروع النقوش السكسونية، وكلها من صنع بلاد الإنجليز ، وتعد من التحف النادرة التى لا تقدر بثمن .

ورد الخليفة هشام على ملك انجلترا بالرسالة الآتية : «بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على نبيه سيد المرسلين ، وبعد : إلى ملك إنجلترا واسكنديناوة الأجل، لقد اطلعت على التماسكم ، فوافقت بعد استشارة من يعنيهم الأمر على طلبكم ، وعليه فإننا نعلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين ، دلالة على مودتنا لشخصكم الملكى . أما هديتكم فقد تلقينها بسرور زائد ، وبالمقابلة أبعث إليكم بغالى الطنافس الأندلسية ، وهى من صنع أبنائنا ، هدية لحضرتكم ، وفيها المغزى الكافى للدليل على التقائنا ومحبتنا ، والسلام .. خليفة رسول الله على ديار الأندلس : هشام» .

- ٣ -

وقدمت بعثات أخرى من فرنسا وإيطاليا والأراضى الواطئة ، وامتلأت بها معاهد غرناطة وأشبيلية ، ونهلت من الحضارة العربية الإسلامية ، وتأثرت بالأخلاق العربية الإسلامية . ولم يعد بعض هؤلاء المبعوثين إلى بلادهم ، سواء من الفتيان أو الفتيات ، تحت تأثير عوامل شتى ، كان من أهمها إعجابهم بالحياة العربية وتقاليدها وثقافتها ، أو نتيجة صلات عاطفية نشأت بين بعض الفتيات الأوروبيات وأبناء سراة العرب الذين كانوا يزاملون أفراد البعثات فى مختلف المعاهد العربية ، حيث انتهت معظم هذه العلاقات بالزواج

بعد اعتناق الإسلام . وقد اشتهر من بين الفتيات اللواتى ربطت الأقدار حياتهن بالأسر العربية الكريمة كثيرات ، أبرزهن الأميرة «مارى غوبيه» ، وهى بلجيكية الأصل ، أحبها الأمير «حسن بن المهدى» وتزوجها ، ومنهن «روبيكا ستارت» من بنات العائلات الأرستقراطية الجرمانية ، والراهبة «جانيت سمبسون» المرافقة لإحدى بعثات البنات الإنجليزيات ، و«شونا» ابنة الكونت «سيرجاك» من أشراف البلاد الواطئة (هولندا) .

وغدت هذه الطلائع للعلاقات الإسلامية الأوروبية تكون نماذج خالدة للإخاء الإنسانى فى الإسلام ، ونماذج عملية رفيعة لقدرة هذا الإخاء الإنسانى فى الإسلام على إخراج أوروبا وأهلها من الظلمات إلى النور ، والمنارة الإسلامية الشامخة التى مازالت قادرة على أن تقدم لأوروبا وأهلها اليوم ما يبصرهم بحقيقة الإسلام ، وأن الأخذ بتعاليم هذا الدين الحنيف سبيل لإقامة علاقات معاصرة من حسن الجوار مع سائر أرجاء العالم ، والتعاون مع المسلمين فى النهوض بما يرجوه العالم من أمن وسلام ، فى ظل الإخاء الإنسانى الشريف .

***

الفصل السابع

حوارات مستمرة

مؤتمرات عن حوار الحضارات

ـ ١ ـ

فى يونيو ١٩٩٥ عقد باستكهولم مؤتمر بعنوان «الإسلام فى أوربا» .

وعقد لقاء بين الاتحاد الأوربى وجامعة الدول العربية حو «الحوار العربى الأوربى» .

وتستمر هذه اللقاءات دون انقطاع فى مختلف العواصم العربية الغربية لتأكيد فكرة حوار الحضارات .

ومن المعلوم أن الذى ينادى بصراع الحضارات هم المستفيدون من هذا الصراع من الصهيونية ، ومن تجار السلام ، ومن العاملين على استعمار جديد للشرق وثرواته البترولية وغيرها .

إن دوائر الاستعمار الغربى تحاول تبديل وتغيير ثوابت الكيان الحضارى الإسلامى حتى لا يكون هو المرتكز الأساسى للمستقبل الإسلامى المنشود ، حيث إنها أدركت بأنه لا يمكن تقويض الأسس العقدية للشخصية المسلمة إلا بإحداث الشروخ والتصدعات في البناء الحضارى الإسلامى تمهيداً لهدم البناء من قواعده . ولذلك تنكّر الاتجاه التغريبى للشريعة والحضارة الإسلاميتين من أجل التبنى الراديكالى لقيم النظام الغربى ومحاولة زرعها فى البيئة الإسلامية بالاشتراك مع كل الاتجاهات الاستشراقية والتبشيرية على حد سواء ، وهذا يهدف إلى تجريد الأمة من خصوصيتها العقدية وأبعادها الثقافية ، وبهذا المنهج أيضا يطمح الاستعمار الثقافى ـ بواسطة وكلائه فى العالم الإسلامى ـ

إلى إخضاع الإنسان المسلم للسير فى ركاب المنظومة الغربية . ومن ثم فهو يكرِّس عجز العالم الإسلامى عن الانطلاق فى المستقبل بمعزل عن التبعية الحضارية للنموذج الغربى .

وإذا كانت هذه هى القسمات البارزة للحضارة الإسلامية فى حاضرها الراهن ، فإن ملامح مستقبل هذه الحضارة ، كما رآه توينبى وأكدته إرهاصات المتغيرات الكونية التى تجتاح عالم اليوم وعالم الغد؟ يؤكد أنه ليس ثمة مجال للشك فى أن حضارة الإسلام هى حضارة الإنسان ، ولذا فالإنسان يحتاج إليها فى يومه وغده كما يحتاج إلى فطرته السوية وإلى استقراره وسعادته(١) .

- ٢ -

على أن القلة المنصفة من علماء الغرب تؤكد عناية الإسلام والمسلمين بحوار الحضارات . وذلك من أمثال : جارودى ، ومراد هوفمان وجون وسواهم .

ود. جون اسبوزيتو مفكر غربى أنصف الإسلام والمسلمين فى كتاباته . وقد دعا هذا المفكر الغربيين إلى التفرقة بين التطرف كفهم خاطئ للإسلام وبين وجه الإسلام الحقيقى . وللأسف فإن هناك دعما من إسرائيل للفكر الغريب والنظرة المريبة إلى الإسلام على أنه تهديد للحضارة الغربية ، بل وللبشرية عامة . وعلى أنه مرادف للإرهاب والعنف.

يقول الدكتور جون كذلك : إن الإسلام يعرف بالديانات السماوية وبرسلها ؛ ويقول عن القرآن ، إنه آخر الكتب السماوية وإن محمداً الرسول آخر نبى فى سلسلة الأنبياء .

(١) مصطفى محمد طه - منار الإسلام - جمادى الثانية ١٤٢٢هـ .

ويقول د. مراد هوفمان : إن الغرب يقبل كل دين ومذهب يعتنقه الفرد الغربى إلا الإسلام ، فلو اعتنقه فلسوف توصف بالمتطرف والإرهابى ، وتوصم ممارساتك بالعدائية والرجعية وغير ذلك كالمتعصب والظلامى .. إلخ .

وفى الغرب يسمح لليهود بإقامة مذابحهم على طريقتهم ولكن لا يسمح للمسلمين بذلك ، واليهود فى ألمانيا (ثلاثة آلاف فقط) يتمتعون بامتيازات رسمية يحرم منها المسلمون (مليون مسلم) ، والكنيسة الكاثوليكية قبلت الإسلام طريقا للخلاص ولكن لا تقبل بمحمد هاديا لنفس الطريق . وفى الغرب يصورون الإسلام على أنه الخطر القادم ضد البشرية ويصورون المسلمين على أنهم متخلفون ومتوحشون . والجهاد بأنه فى رأيهم فكر يحث على العدوان على غير المسلمين .

والصهيونية تقف وراء هذا الفكر الخاطئ مؤيدة ومشجعة، والإعلام الغربى يزكى هذه الروح العدائية للإسلام تزكية واسعة . ويقولون كثيراً : المسلمون قادمون ، والقنبلة الإسلامية ، و«صراع الحضارات» الذى نادى به اليهودى صامويل هنتنجتون مبسوط فى كتاب خطير بهذا الاسم .. وتاريخ الحروب الصليبية وحركة الاستشراق والاستعمار الغربى كل ذلك مما ساعد على نشر هذا الفكر المنحرف .

لابد من قيام حوار حر لتبديد مثل هذه النزعات المتطرفة ضد الإسلام والمسلمين .

جمال الدين الأفغاني وموقفه من الحضارة الغربية

يرى جمال الدين أن الشرق انما تدهور بسبب عدائه للعلم الصحيح ، وأن العلم ، وما يترتب عليه من فنون علمية مثمرة ، قد أصبح غريبا ، بعد أن ضاق الشرق به وحارب ذوى النزعة العلمية العقلية .

ورغم هذه الحقيقة المذهلة فإن الافغاني لم يفقد الامل فى نهضة المسلمين عن طريق عودتهم الى العلم والى مناهجهم التجريبية التى أخذها الغرب عنهم ، والتى نادى «روجر بيكون» منذ القرن الثالث عشر بضرورة اتباعها . . لأنها هى التى تكشف عن القوانين الطبيعية ، ولأن فلسفة ارسطو ومنهجه أصبحا لا يصلحان للعصر ، ولا يؤديان الى التقدم المنشود .

والأفغاني لم يفقد الامل قط فى أن المسلمين فى عصره فهموا ، أو سيفهمون سريعا ، أن القديم لا يستطيع البقاء ، أو استرجاع مقدرته وحيويته ، إلا إذا طعم بالجديد .

يدعو الأفغاني المسلمين إلى مائدة العلم الاسلامى الانسانى فى عصور القوة . والعلم الطبيعى الذى كان للعرب وللمسلمين بصفة عامة أكبر الفضل فى وضع أسسه . فالعلم ، الذى يحتاج اليه المسلمون ، الى جانب معرفتهم بعقائدهم المطهرة وأخلاق القرآن ، هو العلم الذى يكشف عن قوانين هذا الكون ، ويتجه الى تسخير القوى الكامنة فيه .

***

الفصل الثامن

تطوير العلمانية

تطوير العلمانية

-١-

أوربا فى عصر سمته عصر التنوير ، سارت بعيدة عن الذين خطوة خطوة فوجدنا العلمانيين فى أوربا فى القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر ينادون بفصل الدين عن الدولة ، مع اعترافهم بوجود الله لكنهم أبعدوا الدين من كل مظاهر الحياة فى المجتمعات ، من المعاملات فى القوانين ، فى الاقتصاد ، فى السياسة ، فى كل الجوانب ، أما القرن التاسع عشر والقرن العشرون فنشأت علمانية متطرفة تنادى بالغاء الدين جملة وبأن الدين خرافة وبأنه ليس محلا للبحث ، وبأن الانسان مادة لا روح .. ومن العلمانية خرجت البلشفية أو الشيوعية أو المادية الجدلية . وأوربا مع احتضانها للعلمانية، ومع مسيرتها عليها ألا اننا نجد الدول الكبرى فى أوربا مثل فرنسا وألمانيا وانجلترا ثم الولايات المتحدة تعترف بالعلمانية كمذهب لها وهى فى الوقت نفسه تحمى الكنيسة ، وتحمى عملها الدينى حتى إن دوق ويلز استقال من العرش لأن الكنيسة رفضت زواجه من فتاة من أبناء الشعب . ونجد أن ديجول عام ١٩٦٣ يقيل وزير التربية الفرنسى لأنه اعترض على منح المساعدات لكنيسة ، وتشرِّع الدول الأربع هذه تطبيقات تحمى الكنيسة فى بلادها وإن كانت تعترف بالعلمانية ولا تعترف بتدخل الدين فى المجتمع ... أما أوربا فى موقفها منا فانها تعمل بكل قواها المادية والاقتصادية على أن تنشر العلمانية فى الشرق الإسلامى ، وكان أول مظهر لذلك هو اتخاذ تركيا العلمانية مذهبا لها وإلغاء مظاهر الدين فى الدولة ، والغاء كل ما

يتصل بالدين ، مع أن الشعب التركى مؤمن بالإسلام ، يقبل على المساجد اقبالا شديدا ، ويقبل على التعليم الدينى الخاص ، ويقبل على كل مشاعر الدين وعلى القرآن الكريم ، يقبل على كل المظاهر الدينية عامة لكن الدولة تقف بالمرصاد للشعب ، تحارب كل تيار دينى، تقضى على الجماعات الإسلامية ، لا تمد يدها بالمساعدة لأي عمل اسلامى، الدعوة الإسلامية ممنوعة ، بل إن بعض الدعاة للرجوع للإسلام من زعماء تركيا قد حوكموا وأعدموا ؛ لكن موقف الشعب موقف واضح حيال الدين ، فالدين عنده شئ مقدس وضرورى .

-٢-

وفى أوربا اليوم تيار يعمل على تطوير العلمانية حتى لا تكون امراً مضاداً للدين ويعمل فى هذا الاتجاه ماركس ليوكس

يرى «ليوكس» ان أوروبا اليوم هى فى مرحلة ما بعد الحداثة ، التى تبلورت فيها رؤيتها الخاصة بعد ان عبرت مرحلة «الحداثة» وقبل ذلك مرحلة «ما قبل الحداثة» . وقد تميزت الرؤية فى المرحلة الأقدم بأنها منطلقة من الأيمان بالخالق . ثم أصبحت مع الحداثة علمانية تحكم العقل وحده وتعلى من شأن المادة والمحسوس وتعادى الدين ليصبح أمراً فردياً خاصاً . وها نحن أولاء نشهد اليوم فى ظل الأزمة الراهنة «تطورا رئيسيا يتجلى فى التساؤل عن صواب هذا الفصل الحاد بين الدين والسياسة» . على حد قول ليوكس «وإذا كانت هناك تميزات بينهما إلا أنه لم يعد هناك تعارض بين العالمين الدينى والعلمانى ، بين الاخلاق والحياة السياسية، بين الرجل والمرأة . وقد أصبح التنوع مقبولا كحالة حركية «ديناميكية» أكثر من كونه مرحلة انتقالية . . ومع أن العقل لايزال محترما ولم يتعرض للنبذ أو الاهمال ، إلا أن هيمنته

فى طريق الزوال» ولقد ألح ليوكس على ان هناك شعورا متزايدا فى أوساط أوروبية بان الغرب مقبل على ازمة بفعل تراجع بعض القيم الاخلاقية ، وضرب مثلا بنفوذ عصابات المافيا فى تمويل الحملات الانتخابية وما يترتب على ذلك من نتائج لم تعان منها ايطاليا وحدها. واوضح ان هناك متطلبات جديدة تبرز فى حياة الاوروبيين فى مرحلة ما بعد الحداثة تجعل الحاجة ملحة للقيم الروحية[1] .

ومن قبل نرى كولن ويلسون فى كتابه المشهور «اللامنتمى» متأثرا بالفلسفة الوجودية ، وبالمؤرخ العالمى توينبى ، وأيضا بشبنجلر الذى كان يرى ان الحضارة الانسانية تسير على شكل دورات مقفلة ، وهى كالحياة الإنسانية ، فكما أن الإنسان يمر بفترة الطفولة والشباب والشيخوخة ، ثم الموت . فكذلك أيضا الحضارات . . تبلغ القمة ثم تهوى إلى السفح ، ومن هنا فهو يتنبأ بانهيار حضارة الغرب المعاصرة، كما انتهت حضارة روما !

وكولن ويلسون يرى ان عالمنا اليوم يمر بنفس الظروف التى مرت بها حضارة الرومان ، عندما انهارت أثناء انتشار الديانة المسيحية ، والصورة فى عالمنا المعاصر قريبة من الصورة القديمة أثناء انهيار الحضارة الرومانية ، فإذا كان الرومان قد سادوا العالم بالقوة الضخمة التى يملكونها ، فنحن اليوم نرى دولة مسيطرة على العالم ، بقوتها المادية الضخمة !

والحل فى رأى ويلسون هو عدم الانتماء . . أو الرفض و أو السخط على هذه الحضارة التى أرهق بضغوطها الاقتصادية والمادية الإنسان . فالحضارة المعاصرة مليئة بالاغلال والفساد والضغوط

(١) الاهرام ٢/٩/١٩٩٦ من بحث للدكتور أحمد صدقى الدجانى .

ويستشهد بما كتبه جيبون فى كتابه «انهيار الأمبراطورية الرومانية وسقوطها» حيث رأى أن روما تحولت الى حضارة لانفكر الا فى الجنس والحرب ، فنرى الأمبراطور (نيرون) يتزوج صبيا بعد أن يلبسه ثوب فتاة فى احتفال كبير !! بل ويتزوج أمه !

لقد غلبت النزعة المادية على الحضارة الغربية . فسخر الغرب العلم للحروب واستنفاد ثروات الشعوب ، وأصيب الغرب نفسه بكثير من الأمراض الخلقية والاجتماعية ، مما دعا بعض مفكرى أوربا الى القول بأن الحضارة الغربية مهددة بالخطر(١) .

***

(١) مجلة آخر ساعة ـ يونيو ١٩٩٢ ـ مأمون غريب .

الفصل التاسع

الدُّعاة إلى الصراع

دعاة صراع الحضارات

ـ ١ ـ

يروج الفكر الصهيونى لنظرية صراع الحضارات ، داعين الى صدام مسلح بين الاسلام والغرب ، ويقولون إن الإسلام هو الخطر الأكبر على الغرب ، مستشهدين بالفتوحات الإسلامية فى أوروبا .

لقد فسر الغرب الفتوحات الإسلامية الأولى(١) بأنها فتوحات توسعية استعمارية وساوى بينها وبين أشكال الغزو الاستعمارى الأخرى . والحقيقة أن انتشار الإسلام فى العالم المسيحى هو الذى أدى إلى إثارة الغرب سياسيا وعسكريا ضد المسلمين ، وحاول منع الإسلام من الإنتشار فكان صراع المسلمين من أجل تذليل العقبات التى تقف فى طريق نشر الإسلام ، ولم يتنازل الإسلام عن المبادىء التى وضع أسسها فى التعامل مع أهل الكتاب والذين لم يرغمهم أحد على الدخول قسرا أو بالقوة فى الإسلام ، ولك عندما استخدم الغرب القوة لمنع انتشار الإسلام اضطر المسلمون إلى الدفاع عن النفس والدين فنشأ الصراع ، وهو ليس صراعا دينيا كما يحلو للمستشرقين أن يدعوه، ولكنه كان من أجل إزالة العقبات التى وضعتها القوى الكبرى أمام حركة الفكر والعقيدة وحركة الدين الإسلامى ، مثلما فعلت دولة فارس ودولة الروم وغيرهما .

ـ ٢ ـ

إن الفتوحات الإسلامية لم تغير الموقف الإسلامى الأولى

(١) د ـ محمد خليفة حسن ـ الاهرام ١٥/١٢/٢٠٠١م .

والمبدئى تجاه المسيحية واليهودية ، وهو موقف الاعتراف بالديانتين ، وعدم قهر أهلهما على الدخول فى الإسلام ، وعدم الدخول معهما فى صراع دينى لأنهما أهل توحيد .

ونحن لا ننسى المؤامرات الصهيونية للترويج لفكر صراع الحضارات ببواعث سياسية واقتصادية ودينية ، ولكى تقفز الصهيونية إلى المركز الذى يحتله الإسلام فى حضارات العالم اليوم ، ولتصبح هى قائدة ركب الحضارة إذا ما انهارت الحضارة الغربية .

ويحصى هانتنغتون عددا من حضارات العالم هى : (الغربية ، الكونفوشيوسية ، اليابانية ، الإسلامية ، الهندوسية ، السلافية . الأرثوذكسية . الأمريكية . اللاتينية) .

وتقوم نظرته[1] على أن : «النزاعات الكبرى فى المستقبل ستدور على خطوط التماس بين الحضارات ، بسبب الاختلافات الجوهرية بين الحضارات من النواحى التاريخية واللغوية والدينية والثقافية والتقاليد . .» .

- ٣ -

ويحدد هانتنغتون مفهومه للحضارة بأنها : «كيان ثقافى ، فالقرى والأقاليم والمجموعات اللاتينية والقوميات والمجموعات الدينية، لها جميعها ثقافات متميزة ، وإن تكن على مستويات مختلفة من عدم التجانس الثقافى» . ويضيف : «ان الحضارات هى أعلى تجمع ثقافى للناس وأوسع مستوى للهوية الثقافية للشعب ، ولا يسبقها إلا ما يميز البشر عن الأنواع الأخرى» . . ومثل هذا كله . . يتطلب التفاعل والحوار وتبادل الخبرات بين الشعوب وليس إلى اقامة حروب

(١) عن كتاب صدام الحضارات .

وخصومات دائمة بينها .. لأن الحرب والاحتدام هدم للحضارة ذاتها، وتدمير للإنسان .. بانى الحضارة ومبدعها الأول .

ـ ٤ ـ

وكتاب : «صدام الحضارات» لمؤلفه صامويل هانتنغتون نشر فى دورية (فورين أفيرز) وترجم إلى العربية بطبعة أولى عام ١٩٩٥ فى بيروت ، بعد نشره فى مجلة (شؤون الأوسط) . . . وهذا الكتاب هو على العكس من كتاب «حوار الحضارات» للمفكر الفرنسى المسلم جارودى ، إذ يرى صاحب كتاب صدام الحضارات أن العالم مقبل على صدام وحروب بسبب احتفاظ كل أمة بحضارتها .

وتروج جهات كثيرة لفكرة الصراع بين الحضارات ، ومنها الصهيونية العالمية ، التى تتناسى أن العلاقة بين الحضارات عامة ، وبين حضارة الإسلام وحضارة الغرب خاصة ، لم تكن فى يوم من الأيام علاقة صراع ، بل إنما ساد هذه العلاقة روح الحوار والتفاهم والتأثر والتأثير والأخذ والعطاء ، لأن الإسلام فى جوهره يؤمن بالإنسانية ، ويتيح لكل إنسان وكل مجتمع وكل حضارة أن تأخذ فرصتها كاملة فى الحياة .

والصهيونية العالمية فى ذهابها ودعمها لفكر الصراع الحضارى تريد من وراء ذلك حشد القوى الغربية والأمريكية ضد الإسلام وشعوبه من أجل الرغبة فى أن تملأ الصهيونية الفراغ وتبقى هى وحيدة وسط الساحة ، وتسود حضارتها ـ إن كانت لها حضارة ـ فى جميع أنحاء العالم ، مستغلة فى ذلك السيطرة الأمريكية على أوربا وآسيا وقوتها الرأسمالية على فرض حمايتها لجميع دول النفط ، أو استعمارها الجديد لها ، والتى فرضها نزول أول إنسان أمريكى على

سطح القمر وهو ارمسترونج من مركبة الفضاء الأمريكية أبوللو ١١ .

يذهب صموئيل هنتنجتون إلى أن العلاقة بين مختلف الحضارات هى علاقة صراع . . .

بينما يرى المتصوفون أن العلاقة بينها هى الحوار والأخذ والعطاء والتأثر والتأثير لا الصراع والحرب . وفكرة الصراع هذه تناقض جوهر فكر الحوار الذى ننادى به هنا فى هذا الكتاب .

***

هذا الصراع المزعوم

- ١ -

فكر غريب يرى أصحابه ان الحضارات يقوم بينها صراع رهيب، الغلبة فيه لحضارة الغرب والهزيمة للحضارة العربية .

وهم يقولون إن حضارة الإسلام هى حضارة الإرهاب والتعصب ومعاداة القيم . وهذا بلا ريب افتراء .

فالإسلام هو دين سلام ورحمة ووئام وتعارف وتعاون بين الشعوب . والقرآن الكريم يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [١٣ الحجرات] .

حضارة الإسلام هى حضارة السلام وهى حضارة تنبذ الصراع وتحارب العصبية وتندد بالطغيان .

والمسلمون حملة رسالة حب ورحمة وخير للناس كافة ، وللانسانية عامة ، والصراع ليس من مفهوم أى مسلم يعبد الله فى الأرض . والذين يصفون الإسلام بأنه خطر على الإنسانية والحضارة واهمون ، ولا ريب .

فالإسلام لم يكن فى يوم من الأيام مصدر خطر على أحد ، فرداً كان أوجماعة أو ديناً أو أمما .

الصهيونية فى كل فرصة هى التى تصور الإسلام على أنه الخطر الداهم على الغرب والحضارة الغربية ، لأنها تريد رفع الإسلام من قائمة المشاركة فى بناء العالم والحضارة العالمية ليخلو لها الجَو وتنفرد

هى بالسيطرة على مقدرات الشعوب .

ان الخطر الإسلامى على النحو الذى يتوهمه الغرب ويتوقعه ، لا وجود له ، والذين يتحدثون عن هذا الخطر الموهوم هم أنفسهم فى عقولهم أوهام وفى تفكيرهم خيالات لا حقيقة لها .

ـ ٢ ـ

ومختلق نظرية صراع الطبقات صهيونى متطرف وهو صمويل هنتنجتون يدعم الفكر الصهيونى المتطرف ، الساعى إلى تدمير الحياة والحضارة والعالم ، ببواعث أحلام الجنون ، من أجل دعم الاستعمار العالمى وتأييد حماة الاستشراق ودعم الرأسمالية المتنمرة لاغتصاب ثروات الشعوب .

ويؤكد مراد هوفمان أن الإعلام الغربى ومعه إعلام الصهيونية يخصان المسلمين وحدهم بأسوأ النعوت ويفرد المسلم وحده بأوصاف المتعصب والرجعى والظلامى والمتأخر . . الخ . والأقليات المسلمة فى أوروبا تعانى ما تعانيه من هذا الفكر الجنونى المتهور المهووس .

ويصور هذا الإعلام الأصولية الإسلامية بأنها الخطر القادم ضد البشرية والحضارة مستغلين بعض الحوادث الفردية التى لا تشكل تيارا، ولا تجمع نظرية وفكرا .

إن بناء مسجد فى دولة أوربية مسألة معقدة لا تجد حلا إلا بمعجزة من السماء .

وفكر الصراع بين الإسلام والغرب افتراء على الحقيقة وعلى المنطق وعلى التاريخ .

***

الفصل العاشر

حضـــارة الســـلام

حضارة السلام

- ١ -

شهدت الإنسانية على طول الأحقاب حضارات عديدة ، حضارات سادت ثم بادت . . الحضادة الصينية ، الحضارة الهندية ، الحضارة الفارسية ، الحضارة المصرية القديمة ، الحضارة الإغريقية ، الحضارة الرومانية ، وهى اليوم تشهد الحضارة الغربية المعاصرة بضوضائها ، وقنابلها الذرية والهيدروجينية ، وبصواريخها المدمرة ، وأيضا بكشوفها العلمية الفريدة المذهلة ، ومفكرو الغرب أو بعضهم يرددون أن الحضارة الغربية جسم بلا روح وأن مصيرها هو مصير أخوات لها من قبل .

وحضارة الإسلام شهدتها الإنسانية نحو عشرة قرون بين القرن السابع إلى السابع عشر الميلادى ، وهى اليوم مبادىء بلا دعاة ، وأصول بلا حماة ، وإن كانت هى النور المتوهج فى مرأى العين للناس جميعا .

وللحضارات قيم تحمل عناصر بفائها ، ولها سمات وخصائص إن انحرفت عنها عجلت بفنائها ودمارها . وقبل كل شىء فحضارة الأمة أية أمة موازنة لقوتها ، ومعادلة لبقائها على جوهر نقائها ، ولحرصها على ازدهارها وبقائها ، والقوة والمال هما جناحا أية حضارة لأمة من أمم العالم،وبدونها تنهار الحضارة وتضيع مكانتها فى الحياة .

- ٢ -

يرى الفيلسوف المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى (١٨٨٩-١٩٧٥)

أن حضارة الغرب تنظر بعين واحدة إلى الغرب وحده دون أن تنظر بالعين الأخرى إلى بقية العالم وحضارته ، ودون أن تدعم العلاقة بين العالم والغرب من خلال أغلبية البشرية الغير الغربية . ويجىء «هنتننجتون» اليهودى الصهيونى ممثلا لفكرة الصراع الحضارى بين الغرب والإسلام ، وهو فى اعتناقه لهذا الفكر المتطرف مدفوع بالفكر الصهيونى المعادى للإسلام كل المعاداة ، والذى لا يفسح مكانا للإسلام وسط هذه التعددية ، فأتى الفكر الصهيونى ليقول إن بإمكانك أن تكون مسيحيا أو يهوديا أو ماركسيا أو لا دينيا ولكن هناك معتقداً واحداً فقط ينبغى عليك فى هذا الفكر عدم اعتناقه وهو الإسلام ، لماذا ذلك النظر الغريب إلى الإسلام ؟ ، مع أن الإسلام يؤمن بحوار الحضارات لا بصراعها ، ويؤكد دعوته إلى السلام مع الناس والأمم والشعوب والأجناس جميعاً .

والقرآن الكريم يقول : (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) يونس (٢٥) . وما أكثر كلمة السلام فى كتاب الله ، وشعار تحية الإسلام هو «السلام عليكم» لا فرق بين أن تقولها لمسلم أو يهودى أو مسيحى .

دعوة الإسلام إلى السلام من أهم المبادىء فى ديننا الحنيف وفرض على المسلم أن يعيش فى سلام مع نفسه ومع أسرته ، ومع مجتمعه ومع أمته ومع الأمم جميعا ، فأين هذا من صراع الطبقات فى المادية الجدلية أيضا! ؟ .

- ٣ -

المسيحية تؤمن بالسلام ، ولكن شعوبها تصر على أفكار الصراع، والإسلام يفرض السلام على الجميع ويدعو شعوبه إلى

السلام مع الناس جميعا ، وإلى التعايش السلمى والتعارف والتراحم الإنسانى مع كل الأجناس والشعوب . وتجار السلاح وسماسرته لا شك أنهم وراء فكر الصراع أيضا ، وأنهم يحاربون كل حوار وتقارب بين الغرب والإسلام .

ومن مؤتمر استكهولم (يونيو ١٩٩٥) تحت مظلة البحث عن الإسلام فى أوروبا ، إلى ندوة فى خريف طليطلة ١٩٩٥ ، إلى لقاءات كثيرة تدور فى أماكن عدة حول تعاون أوروبا والإسلام من أجل تأكيد وتغذية فكر الحوار بين الحضارات ، سواء فى مراكز البحث فى أوروبا وجامعاتها ، أو فى جامعة الدول العربية فى القاهرة ، أو فى مجمع البحوث الإسلامية ، أو وفى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى القاهرة أيضا ، أو فى جامعة آل البيت فى الأردن . . الإسلام دين حضارة ومجتمعاته كلها تؤمن بالحوار بين الحضارات وبين الشرق والغرب ، وبين الإسلام وأوروبا ، فمن أين إذن تدور عجلة الإعلام فى أوروبا وأمريكا لتغذية أفكار الصراع بين الإسلام والغرب وإشعال النظرية الصهيونية المخربة التى تنادى بأن الإسلام خطر على الغرب وأنه العدو اللدود لأوروبا وأمريكا ، بل لقد قرأنا لمنحرف مجنون يقول : «اضربوا مكة بالقنابل الذرية» .

ومن الأسف أن يمشى الغرب وراء الصهيونية فى دعوى أن الإسلام أعدى أعداء الغرب ، وأنه الخطر الأكبر عليه وأنه لا يحب أن يعامل بروح الوئام والسلام . . وللأسف فإن الإعلام فى الغرب يمشى كذلك وراء الصهيونية فى دعوى الصراع بين الإسلام والغرب ، مع أن التعصب وتحكيم فكرة الجنس والطبقية والمجتمع المتميز على الناس جميعا هى كلها أبغض الأشياء فى نظر الإسلام ، ومعاداة الغرب

للإسلام والمسلمين أمر خارج عن حدود العقل والمنطق والإنسانية والدين .

الإسلام بتعاليمه ومبادئه له صلة حميمة بكل الحضارات وصداقة وثيقة بكل الشعوب ، ولا يعرف للعداوة سبيلا إلى قلبه وروحه ، ولقد أسهم فى بناء الحضارة الإنسانية ، وعمل على دعمها وعلى بنائها وعلى الحفاظ عليها ، ولقد أسهمت الحضارة الإسلامية العربية وما زالت تسهم فى البناء الحضارى المعاصر ، وحضارة أوروبا إنما بدأت بدعم الإسلام لها ، وبمساعدته إياها على قيامها وعلى ازدهارها.

- ٤ -

ولو أردنا أن نعرف الإسلام من عند أنفسنا لقلنا إنه دين السلام والرحمة والعدل والأخاء البشرى والحرية الإنسانية ودين المحافظة التامة على حقوق الإنسان وحمايتها وفرضها ، ولا يسمح بإهدار كرامة إنسان أو إهدار دمه إلا بحق الله ، ولا يكره فى الدين أحدا فى عقيدته ، وجوهر التشريع الإسلامى هو رعاية الإنسان وحقوقه وكرامته والإكبار من قدره ، وتحاشى المساس به أو الإساءة إليه إلا بحق الله ، وهدف الإسلام توحيد الله والإيمان برسله وبكتبه السماوية، ونشر الحب والأخاء والسلام بين بنى البشر جميعا .. والقرآن الكريم يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ الحجرات(١٣)، ويقول : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ الإسراء (٧٠) . والله عز وجل يأمر رسوله وكل مسلم أن يؤمن بمبادىء الإسلم

قولا وعملا : ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران (٨٤) .

الإسلام ومبادؤه هو السلام ، لأن الله عز وجل هو السلام ، وحضارة الإسلام هى حضارة السلام والتعاون والأخاء فى الأرض ، وهى حضارة العدالة والحرية والمساواة بين الناس ، والإسلام ينشر الحب والرحمة ومبادىء الإنسانية بين الناس جميعا .

***

الفكر الحضارى فى الإسلام

-١-

يقول هنرى برجسون : (لقد وجدت وتوجد جماعات انسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنه لا توجد قط جماعة بغير ديانة) .

وفى معجم لاروس للقرن العشرين : (ان الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية ، وان الاهتمام بالمعنى الالهى وبما فوق الطبيعة هو احدى النزعات العالمية الخالدة للانسانية .

وفى هذا رد على والملحدين واشباههم . . . والعجيب فى فلسفة (أوجست كونت) أن تذهب مذهبا ماديا حين قررت أن العقلية الانسانية قدمرت بأدوار ثلاثة : دور الفلسفة الدينية ، ثم دور الفلسفة التجريدية ، ثم دور الفلسفة الواقعية ، وتجعل هذا الدور الثالث آخر الأطوار واسماها .

وخير رد على (اوجست كونت) وأشباهه هو ما يقوله الدكتور (ماكس نوردو) : «الشعور الدينى أصيل يجده الإنسان غير المتمدين، كما يجده أعلى الناس تفكيرا وأعظمهم حدسا . . وستبقى الديانات ما بقيت الإنسانية ، وما يقوله (ارنست رينان) فى تاريخ الأديان : «ان من الممكن أن يضمحل كل شى نحبه ، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحى التدين ، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى ، الذى يريد أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الأرضية».

ويقول (محمد فريد وجدى) فى مادة (دين) فى دائرة معارفه :

«يستحيل أن تتلاشى فكرة التدين ، لأنها أرقى ميول النفس ، وأكرم عواطفها ، ففطرة التدين ستلاحق الانسان مادام ذا عقل يعقل به الجمال والقبح ، وستزداد هذه الفطرة على نسبة علو مداركه ونمو معارفه» .

إن عصر الفضاء الكونى الذى بدأت الإنسانية تدخل فيه ، سيعزز فكرة الإيمان والتدين فى النفس البشرية بما يتجلى فيه للإنسان من عظمة الكون وجلاله وسعة كواكبه واقماره وشموسه .

وإذا كان بعض الباحثين قد وقفوا أمام نشأة العقيدة الدينية يعللونها بأن الدين بدأ في صورة الخرافة والوثنية ، وأن الإنسان أخذ يترقى فى دينه على مدى الأجيال حتى وصل إلى الكمال فيه بالتوجه، كما تدرج نحو الكمال فى علومه وصناعاته . . حتى زعم بعضهم أن عقيدة الإله الأحد عقيدة جد حديثة ، وانها وليدة عقلية خاصة بالجنس السامى . . . فإن هناك فريقا كبيرا من علماء تاريخ الأديان يقررون أن عقيدة الخالق الأكبر هى أقدم ديانة ظهرت فى البشر ، والوثنيات ان هى الأ أعراض طارئة أو أعراض متطفلة بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة ، وهذه هي نظرية فطرية التوحيد وأصالته لتى انتصر لها جمهور من علماء الأجناس وعلماء النفس ، ومن أشهر مشاهيرهم (لانج) الذى أثبت وجود عقيدة الاله الأعلى عند القبائل الهمجية فى استراليا وافريقيا وامريكا ، ومنهم (شريدر) الذى أثبتها عن الأجناس الآرية القديمة ، و(بروكلمان) الذى وجدها عند الساميين قبل الإسلام ، و(شميدت) عند الأقزام وقبائل من استراليا ، وقد انتهى بحث (شميدت) إلى أن فكرة الاله الأعظم توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الانسانية .

وهذا مصداق قوله تعالى فى القرآن الكريم : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ٢١٣ البقرة.

ـ ٢ ـ

إن الدين هو السعادة فى الدنيا والآخرة ، وهو الطمأنينة النفسية فى خضم الحياة ، وهو المنقذ للغرقى فى لج الأحداث . . هو دائما صمام الأمان .

ولقد سيطر الفكر الغربى العلمانى والالحادى والوجودى والماركسى على العقل الأوربى سيطرة شديدة وحورب الدين حربا شعواء ونظرت إليه المذاهب المعتدلة على أنه تراث يأخذون منه حينا ويرفضونه حينا آخر . . واعتبرته المذاهب الآخرى خرافة . وهكذا جوبه الدين من العقل الغربى مجابهة شديدة وتجاوز هذا العقل تراث العصر المسيحى الى تراث اليونان والرومان . . واعتبرت الآداب اليونانية واللاتينية هى المنجم الذهبى الذى يرجع إليه أدباء عصر النهضة . . وعادى الكتاب والمفكرون والعلماء والأدباء والشعراء الفكر الدينى عداء شديدا .

وحين سيطرت العبثية فى منتصف القرن العشرين انهالت على الشعور الدينى بالنقد والعداء . . ومن قبل أعلنت المدرسة الجمالية عدم الالتزام بقيم المجتمع الخلقية والدينية وهى فلسفة القرن التاسع عشر ، حتى قال اوسكار وايلد: «ليس ثمّة كتاب يوصف باللاأخلاقى» . .

بينما صرح أندريه مالرو فى كتابه (إغراء الغرب) عام ١٩٢٥ بأنه فى «القلب من الإنسان الأوربى عبثية جوهرية تسيطر على اللحظات الكبرى فى حياته .. ومسرحيات اللامعقول تعبر ـ كما يقول د . اكرم العمرى فى كتابه «التراث والمعاصرة» عن خيبة الأمل وضياع اليقين وتظهر انعدام روح الدين وضياع العقل ، وهو فكر عام يميز هذه المرحلة من تاريخ الحضارة الغربية فى النصف الأول من القرن العشرين وقد جعل الكتاب المسرح مركز تجمع لصراع الخيال البشرى الدائم ضد الروح الدينى .. وعانت الحضارة الغربية بسبب ذلك كله الهوان بسبب الخواء الروحى والافلاس الخلقى .. مما يعرضها للسقوط ، ولقد عبر عن ذلك كولن ويلسون بوضوح فى كتابه (اللامنتمى وسقوط الحضارة) وأخذت الآداب الأوربية تعيش مع الأساطير اليونانية وتستمد منها وترجع إليها متجاوزة فكر العصور الوسطى بفلسفتها المسيحية إلى قيم الحياة اليونانية والرومانية بما تحمله من عنصرية وصراع وحب للقوة ، وانغماس فى الشهوة والمادة ، وصارت حركة الاحياء سمة للحضارة الغربية المعاصرة والتى لم تعد النصرانية تمثل فيها أكثر من صبغة باهتة أمام الألوان الناصعة للمادية الالحادية المهيمنة .

ومن هنا نرى من يمجد العصر اليونانى القديم من أمثال الشاعر الانجليزى بايرون .. والشاعر الألمانى (هلدرن) والفليسوف الألمانى (نيتشه) .

وكان ذلك مثار نقد من بعض المفكرين الغربيين المنصفين ، فترى «كولن ويلسون» صاحب «اللامنتمى» يتوجس خيفة من حضارة العصر التى يحياها الغرب والعالم معه . والتى هى سبب لكل ما يلاقيه الانسان المعاصر من شرور ، لما طبعت عليه الحياة الغربية من فساد

وترف وانحلال . . وترى طبيبا كبيرا هو» البرت شيفتزر «يرحل إلى افريقيا هربا من الحضارة الغربية المعاصرة . . وما جرته على الانسان من قلق وتوتر واضطراب وعدم استقرار .

ويتنبأ المؤرخ الانجليزى توينبى بانهيار حضارة الغرب المعاصرة كما انهارت حضارة روما . . وكولن ويلسون يرى أن عالم اليوم يمر بنفس الظروف التى مرت بها حضارة الرومان عندما انهارت أثناء انتشار المسيحية . . ويقول مفكر غربى أنه ليس بالبعيد أن نقف على اطلال عواصم الغرب الكبرى نبكيها كما وقف الانسان القديم على اطلال المدن الكبرى القديمة باكياً حزيناً .

ويجئ جارودى المفكر الفرنسى ليعلن سقوط الحضارة الغربية وحتمية الرجوع إلى الإسلام وحضارته الخالدة .

ـ ٣ ـ

ان مفكرى الغرب وعلماءه يقبلون على الاسلام ويدخلون فيه . . ويدرسون مبادئه وشريعته لأنه الدين الأمثل والشريعة السمحة والعقيدة الإنسانية الشريفة . . التى تلائم العقل وتوائم الفطرة وتتمشى مع الحياة وتعمل على نشر السعادة والرفاهية والسلام والأخاء بين بنى البشر كافة .

لقد كانت حضارة الغرب قبسا من نور حضارة الاسلام . . ثم انحدرت فى حيث فوضى المال والجنس والترف والاستبداد والطغيان وجنون الالحاد والكفر بالدين .

يقول (غوستاف لوبون) : العرب كانوا هم الممدنين للغرب وائمة له . . وعن طريقهم اهتدت أوربا إلى تراث الاغريق وكشفت عن ماضيها .

ويقول د/ عبد الحليم محمود ـ شيخ الأزهر[1] :

إذا نظرنا إلى مدنية الصين ، وإلى مدينة الهند ، فإننا نجد أنهما قائمتان على الدين ، وكذلك الأمر فى كل الحضارات القديمة ، ولم تكن الحضارة الإسلامية بدعا في هذا الأمر : إنها كذلك تقوم علي الدين . ومع ذلك فإن الإسلام يحث على التقدم فى مختلف ميادين الصناعة والزراعة وغيرها مما يتصل بالمادة .

ولكن الحضارة المادية ، إذا لم تقم على مبادئ من الخلق السليم وعلى الإيمان بالله وباليوم الآخر ، فإنها تدمر نفسها ، وتشقى بها الإنسانية .

ولا ريب في أن العقيدة الصحيحة ، ليست اختراعا بشريا ، ولا يمكن أن يكون الخلق السليم نتاجا من صنع البشرية ذات الأهواد المتعارضة .

والكلمة الأولي والأخيرة إذن ، فى العقيدة والأخلاق ، إنما هى الوحى المنزل المعصوم .

حصرت الحضـارة نفسها ، منذ المبـدأ فى دائرة المـادة ، وسجنت نفسها فى سجون الحس ؛ وإنها حينما أنخذت الملاحظة والتجربة أساساً ، والأستقراء حكما وميزانا ، فإنها بذلك : استبعدت ـ بجرة قلم ـ الميدان الروحى ، أما ما وراء الطبيعة ، أو الإلهيات فهو فى الغـرب بعيد عن الميـدان العلـمى ، وعن مجـالات المعـرفة الصحيحة .

---

(1) مجلة الأزهر ١٩٧٤ م .

ومادام «ما وراء الطبيعة» لا يظهر في المعمل وفى المصنع ، ولا ينظر بعين ، ولا بميكرسكوب ، فإنه إذن لا يدخل في المحيط العلمى .

هذه النظرة القاصرة ، تقابلها النظرة الرحبة ذات الأفق الواسع ، أعنى نظرة الدين ، إنه يدع الحس مجالا يسرح فيه ويجول بالملاحظة.

المسلمون اكتشفوا الكهرباء

- ١ -

الحضارة الإسلامية الزاهرة الخالدة حدث عنها ، ولا حرج ، حدث عن البصرة والكوفة والفسطاط ودمشق وقرطبة وبغداد وغيرها من عواصم الإسلام وما قدمته للانسانية وللحضارة من أياد جليلة اعترف بها كبار المفكرين فى كل مكان .

ولقد قدم المسلمون للفكر الانسانى وللبشرية جمعاء كل وسائل التقدم وأسباب الرخاء والازدهار ، وعوامل النهضة فى شتى جوانب الحياة : فى الطب والهندسة والرياضة والفلك والفلسفة والصناعة والزراعة والتعدين والكمياء وشتى جوانب المعرفة والثقافة والعلوم والاداب.

وإذا كانت حضارة الغرب هى السائدة اليوم ، فإن حضارة العرب بالأمس كانت هى الرائدة والساعية إلي كل خير وازدهار ورخاء للعالم ،وقد نشأت أول ما نشأت فى منطقة الشرق الأوسط ، بيئة الحضارات ، ومجتمع المدنيات العالمية القديمة ، ومركز الحضارات البشرية القديمة : العربية والمصرية والسبئية والآشورية والبابلية والفنيقية وغيرها ، وكانت منطقة الشرق الأوسط على صلة بحضارات الهند والصين وفارس والروم .وإذا كانت المواريث الحضارية فى المنطقة قد انقطعت ، فأنها لم تفقد طاقتها الابداعية التى ظهرت في أجلي مظاهرها فى انبعاث الحضارة الاسلامية ، وهي حضارة قادت العالم وهزته هزا عميقا حقبة طويلة من الزمان .

ويتجنى كثير من الكتاب والمؤرخين الغربين على الإسلام، فيصفونه بكراهيته للمدنية عامة، وبمناهضته للفنون، ومن هؤلاء كروبر.

ويرد على ذلك مؤرخ غربى آخر ، وهو توينبى الذى أنصف الاسلام كتاباته إلى حداً ما ، وكذلك فعل روجيه جارودى الذى أنصف الاسلام انصافا كبيراً ، ودان بالاسلام ، وقال عنه إنه دين العالم والمستقبل .

والعراق حين ظهور الاسلام كان دعامة الامبراطورية الساسانية سياسيا وثقافيا ، وسوريا ومصر كانت كذلك العمود الفقرى للامبرطورية البيزنطية، ومع ذلك فقد تجلت طاقات هذه البلدان الثلاثة - سوريا ومصر والعراق - الحضارية على يدى الاسلام ، واستعادت في ظلاله مكانتها باعتبارها قلب العالم الإسلامى النابض بالحياة .

وكان نقل العرب للأرقام الهندية عام ١٥٤ هـ / ٧٧٠ م في عهد المنصور العباسى ، وعلى يدى إبراهيم الفزارى من أهم مظاهر التحولات الفكرية العالمية ، كما كانت ترجمتهم للثقافات العالمية من أجل مآثرهم على الحياة البشرية .

وكان فى بغداد عام ٢٧٩ هـ / ٨٩١ م وحدها مائة دار كتب ، وفى عام ٣٠٩ هـ / ٩٩٢ م كان فى بغداد ٨٨٦ طبيبا .

وقد قام سبعون عالما جغرافيا من المسلمين فى عهد المأمون العباسى برسم خريطة الأرض ، وكان قيام يت الحكمة فى بغداد عام ٨٣٠ / ٢١٤ هـ من الأحداث الثقافية الكبرى .

- ٢ -

ولو أردنا استعراض مظاهر التحولات الحضارية على أيدي

المسلمين لما وسعنا الحديث عن ذلك المجد الباذخ الذى ورثه الاسلام للشعب المسلم فى كل مكان ، بل وللشعوب العالمية كافة .

والكهرباء التى تقود حضارة العالم اليوم والتى كشف عنها الغرب ، هل عرفها العرب فى ظلال حضارة الإسلام .

قد يبدو لأول وهلة ان من المجازفة أن نؤكد أن الكهرباء قد عرفها المسلمون واستعملوها أيضاً في ظلال الحضارة الإسلامية ـ التى أظلت العالم من مشرقه حتى مغربه حقبا طوالا بالذات .

والأمر حول ذلك غريب صدقا وحقا ، ففى عام ١٩٣٦ عثر عمال مد الخطوط الحديدية ، فى بغداد على أوان فخارية وعلى أسطوانة نحاسية وقضبان حديدية يعلوها صدأ كبير ، وكانت موضع فحص طويل ، أكد بعده متحف الآثار العراقية أنها بطاريات كهربائية بدائية ، وجاء فى تقرير المتحف : وجدنا شيئا غريبا إلي حد بعيد : وعاء فخارى مثل آنية الزهور ، لونه أبيض يميل إلي الصفرة ، وكانت قد انتزعت فوهته ، وبالوعاء الفخارى أسطوانة نحاسية جرى تثبيتها بالزفت ، وبداخل الاسطوانة ومعزول عنها بطبقة من الزفت قضيب حديد يعلوه الصدأ تماما . . ومن الواضح أنه عبارة عن جهاز كيميائى، يمكن أن تضيف إليه محلولا حمضيا أو قلويا حتى يشرع فى العمل[1].

وهذا الآثر التاريخى دليل على أن أهل بغداد كانوا يستخدمون الكهرباء ، وأن العالمين فولتا وجالفانى الذين نسب إليهما اختراع أول

---

(١) يقول د. يوسف عز الدين فى كتابه «تراثنا والمعاصرة ص٤٣»» : كان المهندس الالمانى «وليام كوننك» فى بغداد يشرف مجاريها سنة ١٩٣٠ فعثر علي صندوق صغير يحتوي على أشياء قديمة ، عليه كتابة عربية ، وعند فتحه وجد بين الأشياء التى يحتوى علبها

=

بطارية كهربائية هما مسبوقان بمخترع عربى قديم ، وهما كذلك كشفا عن صنيع هذا المخترع المجهول وقدما هذا الصنيع للعالم على أنهما المبتكران له .

ودليلنا على أن هذه البطارية من اختراع مسلم عربى أن بغداد مدينة أسلامية المولد والنشأة ، فما يقال من أن الفرس كانوا يسكنون تلك المنطقة حين ظهور الإسلام هو مجازفة فى القول ، أو كلام بغير دليل ، والباحثون الغربيون دائما لا يرضون أن ينسب شئ إلى حضارة الإسلام .

وفى تقرير المشرف علي متحف الآثار العراقى فى بغداد و وهو ألمانى اسمه ولهمكوينج ،أن هذه البطاريات الكهربائية كان يتم توصيلها ببعضها البعض لمضاعفة قوة التيار الكهربائى الصادر ،وكان الغرض من هذه البطاريات طلاء الحلى الذهبية عن طريق الترسيب الكهربائى .

ويقول العالم البريطانى والتروينتون لما قام بزيارة لبغداد عام ١٩٦٢ : إن التيار الكهربائى كان يستخدم قبل جالفانى بحوالى سبعة قرون ، وهذه الواقعة الآثرية إذا ثبتت علميا فإن ذلك سيعد أكبر حدث في تاريخ العلم . . على أنه لم يملك إلا أن صاح بملء فيه :

إنها خلية كهربائية بدائية ، ولقد نظرنا إلي قدرات البشر القدماء بكثير من الاستهانة .

ويؤكد عالم ألمانيآخر ، هو آرن ايجير يشدا ، أنه لا يمكن أن يعنى هذا لأى عالم سوى أنه عمود كهربائى أو بطارية ، ووجود مثل

= صفيحة كهربية تتركب من أقطاب من الحديد والنحاس ومن محلول لم يحدده ، يرجع عهدها إلى عدة قرون وقد اشترتها جامعة بتسلفانية ، وظهر بعد الفحص أنها نموذج للبطاريات الحديثة .

ويؤكد عالم ألمانى آخر ، هو آرن ايجير يشدا ، أنه لا يمكن أن يعنى هذا لأى عالم سوى أنه عمود كهربائى أو بطارية ، ووجود مثل هذه البطارية فى ذلك الوقت يمكن أن يساعد على كشف الغاز فشل علماء الآثار كشفها .

على أن أستخدام الكهرباء فى القديم كان هو من أهم عناصر علم الكيمياء القديم الذى كان يسعى إلى تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة .

ـ ٣ ـ

هذه الحقيقة التى أكدها العلماء والآثريون قرات عنا فى كتاب «بطل الأبطال» لعبد الرحمن عزام جملة صغيرة ، ثم قرات عنها ضمن مقال نشره راجى عنايت في «المصور» عدد ١٩٨٣/١/٢٠ بعنوان «أسرار العلماء» ص٣١ .

والمقال ينسب البطارية إلى سكان منطقة بغداد من الفرس ، وهو كلام مردود لسبب بسيط ، وهو اسلامية مدينة بغداد مولدا ونشأة . . إن أروع ما في ديننا العظيم هو عظمة جوانبه الانسانية وعظمة تشريعاته ، وأصوله ، ومبادئه ، وقيمه الرفيعة .

***

من رموز الحضاة العربية

- ١ -

جابر بن حيّان :

جابر بن حيّان عالم الرياضيات والفلسفة . . عاش في الكوفة وولد جابر بن حيان الازدى عام ١٢٠ هـ بخراسان حيث كان أبوه هناك فى تجارة واضطر إلى البقاء بها فترة من الزمن ليتمكن من رعاية وليده الجديد ، ولكن القدر شاء أن ينشأ يتيما شأن الكثير من العباقرة والنبهاء ، حيث قتل الحاكم اباه على التشيع فألحق الابن باهله الازديين في الكوفة .

وبعد ان شب على الفضبلة أصبح تواقا للعلم والمعرفة فجال عواصم العلم والمعرفة ليجد ضالته فى حلقة ابى عبد الله جعفر الصادق ذلك العملاق الامام عليه افضل الصلاة والسلام فتوسم ابو عبدالله فيه النبوغ فخصص له جزء من وقته لينهل عليه بعض العلوم الرياضية والفلكية والعلوم الطبيعية والفلسفية وعلم الاحياء والاجتماع وعندما تمكن لديه الكثير من أسس العلوم نقلها إلي ثلاثة الآف وتسعمائة مؤلف كان اكثرها النواة الأولى للكثير من العلوم والفنون فلم ينشأ علم من العلوم الا وتحدث عنه ولكن اشتهر بانه واضع علم الجبر الذى سمى باسمه . وعلم الكيمياء الذى يعد ايضا من وضعه ، ولم يدع علما إلا وكتب فيه حتى وصف بأنه أعجوبة الدنيا ونادرة الدهر ، وكان كلما نقل شيئا من تلك العلوم قال حدثنى به سيدى ابو عبدالله الصادق ، ولما ذاع صيته طلبه الخليفة ، فلم يستقر فى بلد

خوفا من أن يتعرض للاغتيال . . ومات وترك هذا الكم الهائل من المعارف والنظريات والتجارب العلمية والعملية ـ حيث كان له مختبر علمى فى الكوفة اخفاه عن نظر العباسيين؟! حتى اختلفت الطوائف والملل فيه ، وقلّ من ادعى الوصل بليلى،بينما اعتبره اخرون شخصية خرافية . ولم يعد هذا العبقرى منذ ذلك التاريخ حكرا علي أحد بل أصبح علمه ومؤلفاته مشاعا للكل فترجم معظم مؤلفاته إلي اللاتينية وسائر اللغات ، ورغم تشيعه وولائه لأهل البيت فقد احتوته كل الطوائف والملل وملأت المكتبات مؤلفاته وترجماتها ، وكانت نظرياته إلى امد غير بعيد تدرس فى الجامعات العالمية ، وطأطأ كبار عمالقة الفكر رؤوسهم امامه اكبارا واجلالا . وحضارة اليوم من شرقها إلي غربها مدينة له ولفكره. .وقد كتبت عنه مئات المؤلفات والمقالات والابحاث بشتى اللغات رغم أنه لم يعش اكثر من ستة عقود . . وتوفى على أكثر الاحوال عام ١٨٠هـ إلا أن حياته كانت كلها عطاء .

ـ ٢ ـ

الخوارزمى :

هو أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى الذي عاش تقريبا من سنة ٨٠٠ إلى٨٤٧م ١٨٤ـ٢٣٣هـ.كان علامة فى الرياضيات والفلك، وبات إنتاجه العلمى مهما للغاية فى تطور العلوم عامة والرياضيات خاصة فى أوربا،وفى استخدام الأرقام العربية ومشتقاتها فى الحساب.

كما يوضح اسمه أنه ولد فى خوارزم فى بلدة اسمها اليوم خيفا (KHIVA) فى تركستان التى كانت تتبع الاتحاد السوفيتى سابقا . ومع أن خوارزم كانت بلدة زاخرة بالعلم والحضارة الإسلامية ؛ إلا أنه نزح إلى بغداد حيث كانت فى زمانه مصدراً للإشعاع العلمى والثقافى .

ولما علم بوجوده الخليفة المأمون دعاه إلى عضوية «بيت الحكمة» الذى أنشآه المأمون مصدراً للعلم والمعرفة ، ويشبه فى يومنا هذا الخليط بين الأكاديمية العلمية وبيوت الخبرة أو المجموعات الاستشارية . هكذا يضرب المأمون لنا مثلاً للحاكم الواعى الذي يخطط للإفادة من خبرة علماء زمانه .

كان الخوارزمى أول من سمى علم «الجبر» على اسم جابر بن حيان ، وكتابه بالعنوان نفسه يشرح كيفية حل المعادلات ذات المجهول الواحد مستخدما أمثلة من الحسابات التجارية والقانونية . وهو بذلك يعطينا مثلا في الاهتمام بالنفع الاجتماعى للعلم والبحث .

كتب الخوارزمى كتابا فى علوم الفلك بنى أركانه الأساسية على حسابات علماء الهند فى مواقع النجوم .

-٣-

البوزجـانى :

من الذين لهم الفضل كبير في تقدم العلوم الرياضية والفلكية على حد سواء .

ولد أبو الوفاء ى بوزجان بإيران في عام ٩٤٠ ميلادية ٣٢٩هـ ، درس ما كان معروفا في زمانه من العدديات والحسابات علي عمه المعروف بالمغازلى ، وعلى خاله المعروف بأبي عبد الله محمد بن عنبسة . ولما بلغ العشرين من العمر انتقل إلي بغداد طمعا في المزيد من العلم حيث لمع اسمه بين الناس .

وفى بغداد قضى البوزجانى حياته فى التأليف والرصد، وانتخب لعضوية المرصد التى اعتبرت في ذلك الوقت تمجيدا لخير العلماء

ودعما للأستمرار في أبحاثهم وعطائهم العلمى .

ومن مؤلفات أبى الوفاء المتميزة شرحه وتطويره لأعمال الخوارزمى، مما يعود بنا إلى الحديث عن كون العلم والمعرفة حصيلة تراكم خبرات وأفكار عديدة. وفي هذا الفراغ بالذات أضاف أبو الوفاء إلى جبر الخوارزمى ما يعد أساسا لعلاقة علم الجبر بالعلوم الهندسية. كذلك ظهرت عبقريته فى فن الرسم فوضع كتابا عنوانه «كتاب فى عمل المسطرة والبركار» والبركار هو الذى يستخدم في عمل أشكال الدوائر .

ـ ٤ ـ

الفارابى :

بلغ الفارابى مرتبة عالية في الفكر حتى سمى «المعلم الثانى» بعد أرسطو ، الذي كان يحمل لقب «المعلم الأول» . ويعتبر الفارابى من أعظم فلاسفة الإسلام فقد أضاف إلي مختلف العلوم إبداعات جديدة، وكان الفارابى أول من وضع موسوعة علمية وافية آسماها إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها ، واشتهرت تصانيف الفارابي وشروحه لكتب المنطق والفلسفة ، ولم تنتقل فلسفة أرسطو وأفلاطون إلي الثقافة الإسلامية ثم الثقافة الأوروبية إلا عن طريق ترجمات الفارابى وشروحه العديدة لها .

وتتلمذ الفارابي في بداية طلب العلم فبى بغداد على يد المعلم البغدادى يوحنا بن حيلان . ثم ترك بغداد إلي حلب عام ٣٣٠ هـ ـ ٩٤١م ، وأتصل بسيف الدولة الحمدانى ، صاحب حلب الذي ضمه إلى علماء بلاطه وأصطحبه فى حملته على دمشق ، وقام الفارابى بعد إقامته فى حلب ببعض الرحلات ، فذهب إلي مصر ومكث فترة ثم عاد إلى دمشق . وكان الفليسوف الفارابى مفكرا ، شديد التدين يميل

إلي الزهد والتقشف ، عاش حياته بعيدا عن التكلف ، وكان يحب الخلوةإلي نفسه زاهدا بأمور الدنيا ، ولكنه كان يعشق الموسيقى ، بل يعزف بنفسه وترك مؤلفا موسيقيا هو «كتاب الموسيقى الكبير» وكان أول من أخترع آلة القانون وقال عنه ابن أبي أصيبعة: «ويذكر أنه صنع آلة غريبة يستمع منها ألحانا بديعة يحرك بها الانفعالات» .

اشتملت مؤلفاته على شرح أرسطو لكتاب المنطق ، وكتب «الطبيعة» وكتاب «القواميس» وكتاب ما بعد الطبيعة وكتاب الأخلاق المفقود حاليا . .

ولا نستطيع أن نذكر إلا بعض مصنفات الفارابى ، ومنها كتاب الجمع بين رأى الحكيمين « افلاطون وأرسطو»وتحقيق غرض أرسطو ليس فى كتاب «ما بعد الطبيعة» وتحليله لمحاورات أفلاطون ، ورسالته فيما يجب معرفته قبل تعلم الفلسفة . . . ومدخل لفلسفة أرسطو ، ورسالة في «أحصاء العلوم» مما كان له أكبر الأثر على نظرية نصنيف العلوم فى الفلسفة المدرسية فى الغرب .

-٥-

ولا نستطيع هنا أن نذكر آلاف العلماء المسلمين ، الذين أثروا حضارة الإسلام ، كالجاحظ والنظام والطبرى والمسعودى وابن سينا وابن الهيثم والرازى وعبد اللطيف البغدادى وابن حزم وابن خلدون والادريسى وسواهم .

والذين يريدون التعرف على وجه الإسلام الحضارى عليهم أن يرجعوا إلى أمثال كتاب هونكة :«شمس العرب تسطع على الغرب، وحضارة العرب لغوستاف لوبون ، وحضارة الإسلام فى دار السلام وحضارة العرب لمحمد كرد على وسواها»

الفصل الحادى عشر

عالمية الإسلام

عالمية الإسلام ـ أولا

ـ ١ ـ

هذه الحضارة اليوم فى الغرب المتمثلة فى أضخم مظاهرها المادية، من صواريخ وقنابل ذرية وهيدروجينة وفلكية ، ومركبات قمرية ، وغيرها ، لم يكن عجبا أن تقوم فى غير موطن للحضارات العالمية من قبل .

فإذا كانت الحضارة الغربية هى التى خلفت الحضارة الإسلامية وهى التى ورثتها ، فإن حضارة الإسلام إنما كانت منطقتها هى الشرق الأوسط ، بيئة الحضارات ، ومجتمع المدنيات العالمية القديمة ، ولقد نشأ الإسلام فى بيئة متصلة بمركز الحضارة البشرية اتصالا وثيقا : الرومية والفارسية والمصرية ، وفى بلاد الشرق الأوسط قام كثير من الحضارات : السبئية والأشورية والبابلية والفينيقية والفرعونية وغيرها ، وكانت كذلك على صلة كبيرة بالحضارة الهندية والصينية كما كانت على صلة بالحضارات الكسروية ، والقيصرية . منطقة حية حافلة بمظاهر التطور الكبير الذى حققه التقاء الحضارات فيها ، وقد ازدهر الإسلام فى نفس المنطقة التى نشأت فيها أصول جميع الحضارات الكبرى ، وهى الشرق الأدنى ،الذى شاهد ثورة العصر الحجرى الحديث ، وعاين قيام أول حياة زراعية فى تاريخ الإنسان ، كما عاين تأسيس المدن ، وحكم الأسر المالكة الأولى وتصنيف الأدبيات . وإذا كانت المواليد الحضارية فى المنطقة قد انقطعت ، فإنها لم تفقد طاقتها الإبداعية التى ظهرت فى أحلى مظاهرها فى انبعاث الحضارة

الإسلامية . والإسلام أجل رسالة حضارية هزت العالم هزا عنيفا ، وجاء بها نبى عربى من مكة المكرمة،الموطن الأول لهذه العقيدة السماوية الجليلة ، ذات الطابع الحضارى الإنسانى عامة . . . ويرد على ذلك مؤرخ غربى آخر هو توينبيى - الذى أنصف الإسلام فى كتاباته إلى حد ما - بأن العراق وقت ظهور الإسلام كان دعامة الإمبراطورية الساسانية سياسيا وثقافيا ، وأن سوريا ومصر كانتا كذلك العمود الفقرى للإمبرطورية البيزنطية ، وأن هذه البلدان الثلاثة سوريا ومصر والعراق ، تجلت طاقتها الحضارية على يد الإسلام حينما أعاد توحيدها سياسيا لأول مرة منذ أن تفككت الإمبراطورية الفارسية قبل ذلك بألف سنة على وجه التقريب ، ففى ظلال الأمويين والعباسيين استعادت منطقة جنوب آسيا ومصر مركزها باعتبارها قلب العالم الإسلامى النابض مثلما كانتا قبل الإسلام طوال ثلاثة آلاف سنة .

- ٢ -

ولم تفقد هذه المنطقة على أية حال قيمتها الحضارية لقيام الحضارة الغربية فى بيئة جديدة بعيدة عنها ، فإن الحضارة الغربية إنما كانت امتدادا لبيئة الحضارة الإسلامية من ناحية ، وكانت هذه الحضارة الغربية كذلك منبعثة بتأثير الحضارة الإسلامية وبفضلها من ناحية ثانية، والإسلام وهو الذى منح الحضارة الإسلامية كل مقوماتها قد أعطى الحضارة الغربية قدرتها على القيام والانبعاث من ناحية ثالثة .

فلقد قام واستيقظ الفكر الأوربى من سباته الذى دام نحو عشرة قرون أويزيد على صوت قدوم العلوم والآداب والفنون الإسلامية ، وكل موجة علم أو معرفة قدمت لأوربا كا مصدرها البلدان الإسلامية ، وفى هذا ما يفسر للقارئ ما ذكرته له من أن بيئة الحضار الغربية ،

هى امتداد لبيئة الحضارة الإسلامية لا غير .

والمسلمون على أدق تعبير كانوا هم أعظم بناة للحضارة في التاريخ البشرى كافة ، ولولا جهودهم الحضارية الرفيعة ما قامت الحضارة الغربية ، وهم على أية حال لم ينضب معين إبداعهم الحضارى ، فإن منطقتهم لم ولن تخمد فيها روح الإبداع أبداً ، إنها منطقة التاريخ والثقافة والفكر ، وهى المنطقة التى شهدت جميع أحداث التاريخ الكبرى ، وجميع مظاهر التحولات الفاصلة ، فى حياة العالم ، والتى لم ترقد حياتها الحضارية فى يوم من الأيام ، وهى التى سوف ولابد أن تشهد تحولا حضاريا جديداً ، لن يسكت صداه ، ولن يعرف أحد مداه ، فى مستقبل الأيام .

- ٣ -

كان المسلمون هم الّذين اتبعوا طريقة البحث العلمى الحق القائم على التجربة ، وكانت واقعيتهم العلمية الشديدة تدفعهم دفعا ثابتاً إلى القيام بتجارب واختبارات شخصية عديدة ، فكانوا يرون إجراء مئات التجارب والتحقيقات للهدف العلمى الذى يعملون له ، دون ان يسعوا إلى كسب مادى .

وكان نقلهم للأرقام الهندية عام ١٥٤ هـ - ٧٦٩ م فى عهد المنصور العباسى وعلى يد إبراهيم الفزارى من أهم مظاهر التحولات الفكرية العالمية ، كما كانت ترجمتهم للثقافات الفارسية واليونانية من أجل مآثرهم على الحياة البشرية والحضارية العالمية .

ولم يأخذ المسلمون العلوم التى دونوها عن طريق الاقتباس ، كذلك لم يأخذوا الالات العلمية ومواد العلم الغريب من الأمم القديمة دون مناقشة أو تحقيق ، بل أدهشوا العالم بالحرية الموضوعية :

والشجاعة العلمية ، اللتين استقبلوا بهما نتائج السالفين وأقوالهم ليشبعوها بحثا ونقدا وتنقيبا وتحقيقا للأخطاء ودحضها ، وعملا دائبا فى الحقل الجديد ، لم يدخلِ الوجلَ إلي قلوبهم اسم كبير فيرهبهم ، ولعل أبلغ برهان على هذه الصفة ما كانوا يؤمنون به من رفض لكل الآراء المنقولة عن السابقين باسم العلم مالم تثبت لهم أنفسهم صحتها عن طريق التجارب العلمية الصحيحة . وقد ألفوا كتبا كثيرة فى نقد آراء أرسطو وفي نقد آراء بطليموس ، وبحسبنا ما ذكره الجاحظ أبوعثمان من نقد الكتاب ـ الحيوان ـ لأرسطو ، وذلك فى الكتاب العظيم الذى ألفه عمرو بن بحر بعنوان «الحيوان» .

وقد امتازت المؤلفات الإسلامية على ألوانها المختلفة العديدة بروحها العلمى الأصيل ، الذى عبر عن موهبة منهجية نظامية رائعة ، وعبقرية خلاقة ، وكانت تجاهد دائماً من أجل توضيح ما استغلق ، أو تفسير ما غمض ، وتمعن فى الوصف الدقيق لكل العوارض وأشكالها وتطورها .

كل شئ واضح ، الحقائق واضحة قريبة للأفهام لمن شاء أن يثبتها أو يعرضها بالتجربة ، والخبرة والمشاهدة ، والجميع يعتزون بالمسؤولية العلمية ، ويقدرونها حق قدرها ويعترفون مع ذلك بعجائب الطبيعة ، ما داموا يجدون تفسيرا لذلك ، وهم يستبعدون من العجائب ما لا يتفق مع العقل ، ويحلون محلها التفسيرات القائمة على المسببات على نتائج التجارب ، فكل ما كتبوه كان ثمرة بحوثهم الخاصة .

إن العقل الإسلامى لم يقف ولم يجمد أبداً ، إنه عطاء دائم وبذل متجدد ، إنه هو الذى منح الحضارة الإنسانية طاقتها وإبداعها .

وكانت الثقافة الإسلامية هى الثقافة الوحيدة التى استظل العالم بظلها نحو عشرة قرون كاملة ، ومن أعلامها الجاحظ ٢٥٥ هـ ، وابن يونس ١٠٠٩ م ، وابن الهيثم ٩٦٥ ـ ١٠٣٩ م ، والبوزجانى ٩٤٠ ـ ٩٩٨ م ومن مثل الكندى وابن رشد ونصير الدين الطوسى ١٢٠١ - ١٢٧٤ م وابن البيطار وابن زهر وابن باجة وابن طفيل وسواهم . وكانت الثقافة العربية تستحوذ على اهتمام كل إنسان فى الشرق والغرب على حد سواء ، حتى لقد صاح بترارك الشاعر الإيطالى فى القرن الرابع عشر الميلادى متألماً قائلاً : لقد قدر علينا أن لا نؤلف بعد العرب . . وكذلك صاح بطريرك قرطبة فى مطلع القرن السادس عشر الميلادى يقول : وا أسفاه إن كل الشبان المسيحيين الذين يريدون اظهار نفوسهم نجدهم لا يعرفون إلا لغة العرب وآدابهم . . إن حضارة الإنسان فى عرف اليوم تقاس بمدى ما يملكه من سيارات فارهة مثلا بينما نجد أن المسلمين فى عهد حضارتهم كان الثراء عندهم يقاس بمدى ما يقتنون من مخطوطات . .

ففى عام ٢٧٨هـ / ٨٩١ م كان فى بغداد وحدها مائة دار كتب عامة .

وكان فى مكتبة الوزير المهلبى ١١٧ مؤلف مجلد ، وفى مكتبة الصاحب بن عباد ٢٠٦ ألف مجلد مخطوط ، وكانت ميزانية المدرسة النظامية فى بغداد المخصصة لشراء الكتب تبلغ مليونا ونصفا من الفرنكات الذهبية ، وكان قيام بيت الحكمة فى بغداد عام٢١٤هـ/ ٨٣٠ م حدثا من أهم الأحداث الثقافية العالمية الحضارية آنذاك . وكان سكان أسبانيا فى عهد قمة الحضارة الاسلامية فى ربوعها عام

٣٨٠هـ/ ٩٩٠ م يقدرون بثلاثين مليونا . وغير ذلك من مظاهر النهضة الثقافية التى كان عليها المجتمع الاسلامى الذى قام على اصول رفيعة من الثقافة والمعرفة والبحث والعلم .

ولقد انتقل العلم العربى من مركز الحضارة والثقافة الإسلامية فى اسبانيا وصقلية وجنوبى ايطاليا ، ومن الشرق العربى نفسه الى اوروبا، فأحدث ذلك هزة جديدة فى مجتمعات الغرب ، وكان هناك طائفة من المثقفين الغربيين تعلموا فى جامعات المسلمين فى اسبانيا وفى غيرها تأثروا بطابع ثقافة المسلمين وبالمهج العلمى الاسلامى تأثرا كاملاً، وكان فى مقدمة هؤلاء الامبرطور الصقلى النورماندى فردريك الثانى الذى كان حلقة الاتصال بين الشرق والغرب ، وفى بلاطه فى صقلية التقى الفكر الغربى بالفكر الاسلامى .

***

عالمية الإسلام - ثانيا

- ١ -

أحكام الاسلام وأدابه هى نمط رفيع للمثل العليا التى سعدت بها البشرية واستقامت بها حال المجتمعات وفاءت الى ظلها الظليل مختلف الشعوب .

والغربة فى الإسلام اليوم أن تكون تعاليم الدين غريبة فى نظر الناس وأن يفهموها فهما خاطئا وأن يتصوروا أن هذه التعاليم مصدر شقاء وتعاسة لهم لا مصدر سعادة وعزة ومجد ، ولا يمكن أن يكون هناك مسلم يدين بهذا ، وبالرغم من ذلك فاننا نلاحظ أن هناك ظاهرة ملموسة واضحة لدى بعض الشباب المسلم ، وهى ضعف القيم والمبادىء الدينية فى نفوسهم ولكن قبل أن نقول ذلك علينا أن ننظر للأسباب التى أدت الى ذلك ، ويمكن القول ان أهم أسباب هذه الظاهرة هو عدم وجود القدوة الحسنة الصالحة أمام أجيال الشباب ، وضعف التربية فى المدرسة والبيت والجامعة ، وأيضا كثرة الأيديولوجيات والفلسفات التى تحارب الإسلام .. وأسباب أخرى كثيرة .

وعلينا نحن أن نبدأ بتربية الجيل الجديد تربية دينية سليمة فى البيت والمدرسة والجامعة والمسجد ، ولا نستعمل الشدة والأكراه حتى لا ننفر الشباب من الإسلام ، وعلى وسائل الإعلام التعاون مع علماء الدين فى المحافظة على قيم الدين وفضائله السامية .

الحضارات القديمة «الفارسية ،الإغريقية، الرومانية ، المصرية،

وسواها من مختلف الحضارات العالمية البائدة» قد مثلت دورها على مسرح الحياة فى فترة من فترات عصور التاريخ ثم انتهت كأن لم تكن بالأمس ، وورثتها الحضارة العربية التى ازدهرت فى بغداد وقرطبة والقاهرة ودمشق وأصفهان وجرجان وبخارى فى الوطن الإسلامى الممتد من الصين شرقا إلى بحر الظلمات غربا ، ومن أوروبا شمالا إلى أوساط قارة افريقية جنوبا . وكانت هذه العواصم الإسلامية تسبح فى نور العلم والمعرفة والتقدم والمدنية وفى ظل الأمن والرخاء والرفاهية . . والسلام .

- ٢ -

الحضارة الاسلامية حضارة شريفة نجمت من أصول شريفة ، وقامت عليها دولة جمعت كل أصول التقدم فى السياسة والفكر والاجتماع والاقتصاد وكل جوانب الحياة الرفيعة ، وشهد لها العلماء والمفكرون والمشرعون فى كل عصر وكل جيل . حضارة أعزت الدنيا، ودوت بذكرها الأفاق وعاش فيها الناس أحرارا مكرمين ، ينعمون بشتى ألوان السعادة والثراء والرخاء والتقدم ، وكانت أوروبا تنظر اليها وتذهل لهذا التفوق الحضارى الفريد . . ويصيح شاعر كبير مثل «بترارك» الايطالى فى العصور الوسطى قائلا : «يا الله لقد تفوقنا على كل الأمم إلا العرب الذين اذلونا بحضارتهم فيا للخزى» .

وجاء دور أوروبا فنهلت من حضارة العرب وعلومهم وثقافتهم حتى استطاعت ان تقوم على اقدامها ثم استطاعت ان تملك زمام المبادرة وتأخذ العنان بيديها من العرب ، وأن تنشىء لها حضارة جديدة تخالف الحضارات الأخرى ، ولا تتفوق على حضارة الإسلام فى الروحانيات بل فى الماديات وحدها .

تقول «هونكة» المستشرقة الألمانية فى كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب) : «كل موجة علم أو معرفة قدمت لأوروبا كان مصدرها البلدان الإسلامية» .

ويقول غوستاف لوبون فى كتابه «حضارة العرب» :

«حضارة أوروبا مدينة للعرب بحضارتهم ، فالعرب هم الذين فتحوا لها ما كانت تجهله من المعارف الفلسفية والعلمية والأدبية ، فكانوا دائنين للغرب وائمة له ، وعن طريقهم اهتدى الغرب الى تراث الأغريق وكشف ماضيه فأخذوا يبحثون عنه .

ونحن هنا نؤكد أن الأصول العلمية والفكرية لحضارة الإسلام والفكر الإسلامى قد أخذها الغرب ، وصاغ منها حضارته التى هى صدى كبير للحضارة الإسلامية ، فقد سرقت أوروبا على غفلة منا كنوزنا ومواريثنا الثقافية والحضارية مثلما سرقت كذلك امبراطورية المسلمين الممتدة فى كل مكان واقامت على كل هذه الأسس حضارتها المائلة اليوم .

***

عالمية الإسلام ـ ثالثاً

ـ ١ ـ

حقائق كبرى آمن بها الاولون عندما حمل الدعوة الى الاسلام أخر الأنبياء والمرسلين واختتم الرسالات بالشريعة الخاتمة وجمع الكتب السابقة ليضمها كتاب واحد هو دستور البشرية الخالد فلا نبى بعد نبى الاسلام . . ولا كتاب بعد القرآن . وتلك الحقائق الاولية البسيطة هى التى امتلأت بها نفوس الاولين فاندفعوا يمكنون للدين يقيمونه فى أنفسهم ويحافظون عليه ويدعون شعوب الأرض كلها من وراء حواجز القهر والاستبداد الى رفض الذلة والخضوع لقيم الأرض المادية والمعنوية . . والتخلص من استعباد وسيطرة وتحكم العباد فى العباد لتبقى العبودية والخضوع والانقياد والاستسلام لله وحده دون ما سواه فى عالم الغيب والملكوت أو عالم الملك والشهادة [illegible] حد سواء

ـ ٢ ـ

وظلت الأيام تترى والسنين يتلو بعض[illegible] بعض والقرون تتابع ، ويدخل فى الدين عناصر تبطن الكفر وتلتحف بالايمان فى مجالات متأنية متمهلة تعمل على نقض دعوىٰ الاسلام عروة عروة الى أن كان لتلك الطوائف ما أرادت وتمنت وتحقق لها ما أشتهت ، وإذا الحوادث تتضاعف أشرعتها والأحداث تتعجل الخطى ، فينقض المخالفون على الاسلام والمسلمين ، وجاء القرن العشرون ليشهد أسوأ منطق عرفته البشرية فى تاريخها الطويل وهو منطق القوة فلم يعد هناك أى مجال

للتلاقى بين الأقوياء والضعفاء السادة والعبيد أمام تلك للتحديات اتى تفاجأ بها شعوب الإسلام . وأقوى هذه التحيات هى :

أولا : غياب الشرعية الدولية التى تقسم البشرية اليوم وتتحكم فى مقدرات الأمم والشعوب استنادا الى منطق القوة الرهيبة التى يملكها كل نظام ومن ورائها احتشادات ضخمة للقوى البشرية والعسكرية وتجنيد للموارد الاقتصادية وحصر للقوى السياسية وجمع للسلطة وتركيزها فى أيدى حكومات القوة التى تتولى الأمور فى دول النظامين ويتوج ذلك تحالفات سياسة واقتصادية وعسكرية تنضوى تحت لوائها دول كل النظامين وتستهوى للآنضمام اليها دولا اخرى ليست لها أية مصالح فى الانضمام لهذا النظام أو ذلك ، الأمر الذى جعل الحياة على وجه الارض عذابا لايطاق ، ولا ينجو من احتمال هذا النظام أو ذاك الا تلك الدول والشعوب التى آثرت السلامة مع الرضا بالذلة والمهانة.

ثانيا : تحد أخر وعقبة كبيرة تواجه المسلمين أن أرادوا بعث النهج الألهى هو ذلك المحور المادى الخطير الذى يقوم عليه صراع القرن العشرين وقام عليه أحد الانظمة التى تقتسم البشرية اليوم .

ثالثا : خطر أخر يواجه المنهج الألهى يتمثل فى أصحاب الهمم الصغيرة عن المنافقين والمرجفين والذين فى قلوبهم مرض . فلا يستطيعون دعم الشرعية الدولية بأى قوة فى أيديهم .

-٣-

إن جميع مبادئ الإسلام تؤكد :

١ - دعم الإسلام لحقوق الإنسان وبخاصة فى الإخاء والمساواة .

٢ - دعم الإسلام لكرامة الإنسانية وشخصيته .

٣ - دعمه للعلم والمعرفة والثقافة والقراءة .

٤ - حمايته لحقوق العامل .

٥ - رعايته للفقير والمريض والطفل والمسكين واليتيم .

٦ - حمايته للمرأة وحفظه لكرامتها .

٧ - الدعوة إلى وحدة الإنسانية .

٨ - محاربته للعنصرية .

٩ - محاربته للترف .

١٠ - دعوته إلى الوسطية فى كل شىء .

١١ - مسايرته للفطرة الإنسانية السليمة .

١٢ - دعوته لمكارم الأخلاق ونهيه عن الرذائل ما صغر منها وما كبر .

إلى غير ذلك من المبادئ التى قامت عليها حضارة الإسلام . واضحة للعيان .

***

عالمية الإسلام ـ رابعاً

ـ ١ ـ

فى عام ١٩٥١ عقد مؤتمر دولى فى جامعة باريس لدراسة الشريعة الإسلامية ، وجاء فى البيان الختامى له :

اتضح بجلاء وفهم لمبادئ القانون الإسلامى أن لها ما لها من قيمة لا تقبل الجدل ، وتعدد المذاهب داخل هذا النظام القانونى الكبير إنما يدل على الثروة الضخمة من النظريات القانونية التى تلبى جميع المطالب العصرية . (ص١٩٧ الوعى الإسلامى عدد شوال ١٣٩٥هـ) .

ـ ٢ ـ

ويقول د/ عبد الحليم محمود : كل ما بنى على الوحى فهو دين وما بنى على العقل والتجربة فهو علم ، وما بنى على الذوق فهو فن، أما المجال العقلى المجرد النظرى فهو فلسفة .

ويقول(١) : إن قيادة الدين للحياة هى أساس سعادة البشر والانسانية .

ـ ٣ ـ

وعالمية الإسلام ترجع فوق ما ذكرناه سالفا إلى مايلى :

القرآن الكريم ـ موافقة الإسلام للفطرة ـ إنسانية المبادئ ـ رعاية

(١) الجمهورية عدد ٢٤/ ١١/ ١٩٧٥

حقوق الإنسان - تكريم المرأة - رعاية الطفولة - العدالة الكاملة - الحرية والمساواة والأخاء - الاهتمام بالفقير واليتيم والعامل والمريض - محاربة الفقر - التكافل الاجتماعى فى الإسلام . إلى غير ذلك من مبادئ الإسلام .

والإنسان أولا وأخيرا وكرامته وشخصيته هى محور اهتمام الإسلام وفلسفة تشريعاته الجليلة .

وبالله التوفيق والله يهدينا إلى سواء السبيل

المحتوى